الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية (النموذج النمطي)

عرفنا أن النموذج النمطي الإسلامي الذي يستمده الكاتب من نهر الحياة الدافق يتميز بصفات أو علاقات أو سلوكيات، أو وظيفة اجتماعية (دينية أو تعليمية)، أو سياسية تميزه عن غيره من الناس الآخرين، وكل مجموعة من هؤلاء ينتمون إلى نوع من هذه الصفات أو السلوكيات أو الوظائف يصنفون في إطار (نمط) معين، يتمايز فيه هذا عن ذاك.. وهؤلاء عن غيرهم.. وهكذا، إلا أن القاعدة التي تحكم هذا التصنيف تنطلق أو ترجع إلى الإطار العام الذي تتحرك هذه الأنماط داخله، وهو إطار «العقيدة الإسلامية» التي تحكم فعاليات هذا النمط (الشخصية) من الناس، وتسمه بسمة معينة تضعه في إطار محدد تتشكل شخصيته خلاله..

والقرآن الكريم بوصفه المعين الثرّ لتقديم النمط الإنساني الإسلامي - يعرض لكثير من هذه الأنماط الإنسانية ذات الحضور الفاعل في قصصه وأحداثه، يحكمه الإطار العقدي في هذا التصنيف، فنجد المؤمن والكافر والمنافق، ولكل منهم مجموعة من السمات الخاصة التي تحدد ملامحه وتكوينه، وتميزه عن غيره من الأنماط الأخرى التي يتلاحم معها من خلال معايشته لها، أو معايشتها له، سواء في الواقع الحي (الحياة) أو الواقع التاريخي...

هذا التشكيل أو التصنيف ينهض على مجموعة من السمات التي تتعلق بكل من العقيدة أو العبادات، أو العلاقات الاجتماعية، أو

العلاقات الأُسرية، أو الأخلاقيات والعواطف والانفعالات، والمكتسبات العقلية والمعرفية، والتي تتعلق بالحياة العملية والمهنية والبدنية..

هذه السمات لا توجد منفصلة في شخصية المسلم، بل يتعاون كل منها، وتتفاعل فيما بينها وتتكامل، فتقدم لنا أنموذجاً للإنسان المؤمن الذي نعمل على تحقيقه واقعياً في حياتنا [١]. فتوجه سلوكه في شتى مناحي الحياة، من ثم تبرز على مسرح الواقع شخصيات إسلامية متكاملة ومتناسقة في علاقاتها بالناس والكون والحياة، وفي علاقاتها في الوقت نفسه بالخالق - عز وجل - فتبدو كأنها «المثال الإنساني» الذي صنع الله الناس عليه في العالمين.. وتطمح العقيدة في إيجاده، (فالدور العقدي هو الأساس في توجيه السلوك الإنساني في جميع مجالات حياته) [٢]، فهي التي تشكل شخصيته، وتضعها في الإطار الصحيح.. حيث إن الدين في جوهره يؤكد على المظاهر السوية للشخصية في إطار متكامل تقود ممارساته المختلفة إلى النضج والاتزان والسيطرة على الذات، وعلى عناصر البيئة من حوله...) [٣].

وهذه الشخصية الكاملة المتكاملة (المثال الإسلامي للإنسان)، على هذا المستوى المثالي الذي تطمح العقيدة في وجوده، حتى وإن وجد فليس كل المؤمنين في هذا المستوى العقدي الإسلامي على درجة واحدة من الإيمان، بل منهم الذي فرط أو أهمل في هذه أو تلك من العبادات أو السلوكيات الإسلامية، لذلك التفت القرآن الكريم لهذا التفاوت بين

---

١ - القرآن وعلم النفس ص: ٢٢٤.

٢ - القرآن وعلم النفس ص: ٢٢٤.

٣ - الاتجاه نحو الدين ص: ١٣ د/ نزار مهدي الطائي، سابق.

الأنماط الإنسانية، فيضع هذا النمط في مستويات مختلفة، فمنهم الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات بإذن ربه.. قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾) (١).

وعن هذه المستويات أو الأنماط الثلاثة للشخصية الإسلامية (المؤمن) يقول ابن كثير في تفسيره:

الظالم لنفسه: هو المفرط في فعل الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد: هو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات..

أما السابق بالخيرات بإذن الله: فهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات..) (٢).

في ضوء هذه المعطيات القرآنية، لكل نمط من هذه الأنماط، والتحديد المصطلحي له، نستطيع أن نتعرف على الإطار المناسب لإيجابية الشخصية الإسلامية أو سلبيتها، في إطار الدور الذي تقوم به، أو ما يجب أن تقوم به في الرواية الفنية، ومدى تحقق هذه السمات أو المواصفات السلوكية، وما يتعلق بها من تصورات أو علاقات حيوية، تنطلق خلالها الشخصية من التصور أو الرؤية الإسلامية، لنرى إلى أي

١- سورة فاطر الآية: ٣٢.

٢- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير. المجلد الثالث ص: ٥٥٤، ٥٥٥ دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) - د ت - مصر.

مدى، استطاع الروائيون في إبداعاتهم الروائية، تقديم هذا النمط أو النموذج الواقعي الذي يرتبط بالإسلام في أي من أطرافه أو أسبابه الممتدة على بساط الحياة الفسيح، سواء أكانت هذه الشخصية ترمز إلى قيمة من قيم الإسلام، أم تقوم فيه مقاماً بارزاً وجليلاً كالإمام وغيره، أم ترتبط بالإسلام بعلاقة عمل أو وظيفة تختلف عما يقوم به من عبادات، لا يتمايز فيها هذا النمط عن غيره من الناس، مثل: موثق عقود الزواج (المأذون)، والشيخ المعلم للقرآن الكريم في كُتَّاب القرية، أو الداعية الإسلامي الذي ينصح للناس ويعلمهم من أمور دينهم ما تستقيم به دنياهم وتصلح به آخرتهم، وغيرهم من النماذج التي عرض لها هؤلاء المبدعون في رواياتهم، لنتعرف عن قرب على موقف هؤلاء الكتَّاب تجاه هذه الشخصية، لا سيما إذا كانت هذه الشخوص في الرواية، تنضح بفكر الكاتب ورؤيته، تجاه هذه النماذج الإنسانية، وموقفه من وظيفتها في الواقع الاجتماعي المعايش، من خلال العالم الإبداعي الذي رسمه الفنان أو المبدع.

من أهم هذه الشخصيات، التي سنعرض لها في دراستنا للرواية، واقعية كانت أو اجتماعية أو سياسية..

١- شخصية: الصوفي.

٢- شخصية: موثق عقود الزواج: (المأذون).

٣- شخصية: الإمام - الواعظ - الداعية.

٤- شخصية: المعلم «سيدنا».

أولاً: شخصية الشيخ الصوفي:

الصوفي في المفهوم العام، ودون دخول في تفصيلات تَعَرَّض لها كثير من الباحثين في تخصصهم، لأن موضوعنا لا يحتمل هذه الإطالة..

فالصوفي في نظرنا: هو الذي انخلع عن الدنيا بكليته، وأعطى وقته للعبادة مع السعي في جلب رزقه الضروري دون تهافت على الدنيا..

إذ الزهد المشروع «هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله كما روي عن الرسول ﷺ: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك، لأن الله يقول: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [1].

والروائيون وجدوا في شخصية الصوفي بأشكالها المختلفة ثراء وقيمة تنهض باتخاذها نموذجاً فنياً في إبداعاتهم، فتقدم لهم ما لا تستطيع أن تقدمه شخصية أخرى في المجتمع، لما تحمله من جلال، وتتمتع به من احترام، يصل إلى حدّ القداسة، في نفوس الكثيرين من العامة والخاصة في المجتمع، لا سيما في التراث الفكري والإنساني، الذي قدم لنا مجموعة من رجال التصوف ذوي المكانة العظيمة في

١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد العاشر (علم السلوك) ص: ٦٤١، مكتبة ابن تيمية، والآية من سورة الحديد رقم: ٢٣

ذاكرة المسلمين والمجتمع الإسلامي.. فتستطيع أن ترمز إلى واقع ما، أو تشير إلى بعض السلوكيات أو القيم أو المواقف التي كان يفرزها وجود هذه الشخصيات، لا سيما في عصور التخلف الفكري والحضاري، أو عهود الاستعمار الأجنبي، أو الظلم الاجتماعي، والقسر السياسي بحلقاته المتصلة والمتواصلة التي طوقت المجتمع وقتاً طويلاً، سواء بالسلب أو الإيجاب، غير خاف على منصف أن (الشخصية الصوفية، وجهود علماء الدين زودت الأمة، لا سيما الفلاحين في القرى، بطاقات الثورة والتمرد على الظلم والفساد) [١].

فضلاً عن كونهم الملاذ، أو الحائط القوي الذي يحتمي بها هؤلاء البسطاء، عندما تحيط بهم الخطوب، أو تنزل بهم النوازل. فيهرعون إلى الشيخ علَّه يخلصهم أو ينجيهم مما هم فيه..

من ثم تباينت شخصية الصوفي في الرواية، لا سيما المصرية، بحسب تباين فكر المبدع الذي يصورها.. بل ربما تتباين عند الكاتب الواحد نظراً؛ لتباين مراحل فكره أو تطورها، كما سنرى عند نجيب الكيلاني [٢]

من هذه الشخصيات التي نالت اهتمام الدراسة في الرواية المصرية شخصية الشيخ «علي الجنيدي» في رواية «اللص والكلاب» للروائي: «نجيب محفوظ» [٣].

١- رأس الشيطان بين التاريخ والفن نجيب الكيلاني، مقال مجلة الأمة القطرية، عدد: ٤٤، شعبان ١٤٠٤هـ.

٢- انظر ص: ٢١٤ من هذا البحث، وكذا «نجيب الكيلاني أديباً» رسالة ماجستير للباحث.

٣ - نجيب محفوظ: أديب أشهر من أن يعرف، لا سيما بعد ما نال جائزة نوبل العالمية في الآداب عام ١٩٨٨م.

فالشيخ «علي الجنيدي» شيخ صوفي، له مكانته بين مريديه، يهرع إليه المكروب منهم، عله يجد لديه الراحة والطمأنينة والاستقرار النفسي، لا سيما عندما تلهبهم نار الحياة، وتعكرهم قسوتها، ويذيقهم الواقع المأساوي الأسود مرارته، فيهرعون إلى الشيخ الجنيدي يرتشفون كؤوس السكينة في رحابه...

عندما غامت الدنيا في وجه سعيد مهران «اللص» ولفظته الحياة، لم يجد باباً مفتوحاً في وجهه إلا «الباب المفتوح» باب الشيخ علي الجنيدي.

«السلام عليكم يا سيدي ومولاي.

أتمّ الشيخ تمتمته ثم رفع رأسه عن وجه نحيل فائض بالحيوية بَيِّن الإشراق تحف به لحية بيضاء كالهالة.. وعلى الرأس طاقية بيضاء منغرزة في سوالف كَثَّة، فضية، حدجه بعينين رأت الدنيا ثمانين عاماً، ورأت الآخرة، عين لم تفقد جاذبيتها ونفاذها وسحرها، فلم يملك سعيد من أن يهوي على يده فيقبلها وهو يدفع دمعة باطنية استقطرها من جو الذكريات والأب والأمل والسماء في الماضي البعيد.

- وعليكم السلام ورحمة الله..

هذا صوت زمان! ترى كيف كان صوت أبيه؟ كأنما يتذكر صوت أبيه بعينيه، فيرى وجهه وشفتيه وهما يتحركان، ولكن الصوت انتهى.. وأين المريدون، وأين أهل الذكر يا سيدي محمد على بابك!.. وتربع أمامه على الحصير وهو يقول:

- أجلس دون استئذان لأني أعرف أنك تحب ذلك.

شعر بأن الشيخ ابتسم من دون أن ترتسم على شفتيه الغارقتين في البياض ابتسامة.. ترى هل تذكره؟.

- لا تؤاخذني لا مكان لي في الدنيا إلا بيتك.

ترك الشيخ رأسه يهوي في صدره وهو يقول بصوت هامس:

- أنت تقصد الجدران لا القلب.

فتنهد سعيد، وبدا لحظة كأنه لم يفهم شيئاً، ثم قال بصراحة ودون مبالاة:

- خرجت اليوم من السجن.

فأغمض الشيخ عينيه متسائلاً:

- السجن..

- نعم، أنت لم ترنِ منذ أكثر من عشرة أعوام، وفي تلك الفترة من الزمن حدثت أمور غريبة، ولعلك سمعت عنها من بعض مريديك الذين يعرفونني.

- لأنني أسمع كثيراً، لا أكاد أسمع شيئاً[1]»..

نجيب محفوظ هنا، يقدم لبعض ملامح الشيخ «البعد الخارجي» وهيئته، فيصوره تصويراً يستمده من صور المجاذيب ورواد المشهد الحسيني الذي يحياه الكاتب حتى النخاع، حيث يعيش هؤلاء الأشخاص (الصوفية) بملابسهم الرثة وهيآتهم القلقة وأجسادهم المتسخة،

١- اللص والكلاب ص١٨، ١٩.

وعيونهم المغمضة، وعقولهم الشاردة، وكأن الكاتب أراد أن يقدم هذا النموذج الرامز إلى الدين في الرواية، ليشير من طرف خفي إلى أن الدين - وهذه صورته - لا يقدم شيئاً للإنسان أو المجتمع، لا سيما، والشخصية «سعيد مهران» الذي يلوذ بالشيخ قد سدت أمامه جميع الأبواب، ولم يبق أمامه باب مفتوح إلا باب الشيخ - باب الدين - (المفتوح دائماً كما عهده من أقصى الزمن) [١].

فالخلفية الفكرية لنجيب محفوظ تقف موقفاً غير متلائم مع الدين - أي دين سماوي - إن لم يعاده، ويتمثل هذا الموقف في أمرين: أحدهما ظاهري، والثاني باطني، وكلاهما يعكس ما يُكنُّه الأول للآخر، أو يتصوره الكاتب للدين..

أما الأثر الظاهر فيبدو كما نرى في تصويره لهيئات الشخصية المتدينة، وكيف يصل التصوير إلى أن يصير مسخاً يبعث على الاشمئزاز والنفور والسخرية، وشخصياته كثيرة في إبداع نجيب محفوظ [٢]..

أما الأثر الباطني فيتمثل في انعدام تأثير هذه الشخصية الإيجابي في حركة المجتمع، وعجزها عن تقديم البديل الصحيح والفاعل في تطور هذا المجتمع، فتبدو هذه الشخصيات وكأنها هامشية منعدمة الدور في فاعلية التطور والبناء الاجتماعي كما هو حادث مع سعيد مهران والشيخ الجنيدي.

حَجْب نجيب محفوظ للدور المنتظر من عالم الدين وعدم الإفصاح عنه جعلنا نفهم أن هذه الشخصية قصرت في أداء واجبها الديني، وهو

١- الرواية ص ١٨.

٢- شخصية محمد حامد برهان (الإخواني) الأعور الأعرج في رواية الباقي من الزمن ساعة، وغيرها.

احتضان سعيد مهران وإسباغ الرحمة عليه وفتح أبواب التوبة أمامه، وإغراؤه بشتى الطرق للدخول في رحاب الله ولكنه لم يفعل، لأن نجيب محفوظ أراد ذلك فأصبحت الصور شائهة مبتورة عن قصد، أراد به الكاتب الطعن في الإسلام جملة من خلال هذه الشخصية في رأينا..

فالشيخ الجنيدي بمنأى عن سعيد مهران حتى لغة الخطاب لم تحقق التواصل المطلوب بين المتحاورين، فالشيخ غارق في رموزه وتهويماته، ويقف سعيد مهران على الطرف الآخر من المعادلة - إن صح التعبير - فالبون شاسع والهوة عميقة بينهما، حتى إن سعيد مهران عندما يقتحم على الشيخ خلوته (بيته) فيواجهه الشيخ:

- أنت تقصد الجدران لا القلب..

فكأن الشيخ قد أغلق الباب المفتوح - باب الأمل - في وجهه إلا أن اللقاء يتواصل بينهما، كلما وجد سعيد حاجة في زيارة الشيخ لكنّ الأمر يزداد تعقيداً وانغلاقاً.

- مولاي قصدتك في ساعة أنكرتني فيها ابنتي...

فقال الشيخ متأوهاً:

- يضع سره في أصغر خلقه!.

فقال جاداً:

- قلت لنفسي: إذا كان الله قد مد له العمر، فسأجد الباب مفتوحاً.

فقال الشيخ بهدوء:

- وباب السماء كيف وجدته؟

١- أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب ص ١٣٩ د/ السيد أحمد فرج.

ويوغل الحوار في تأزم بين الشيخ وسعيد مهران حتى يرسو على حافة الرفض الصريح:

- ألا تزال تحيي الأذكار هنا؟.

فلم يجبه، وساوره القلق فعاد يسأل:

- ألا ترحب بي؟.

ففتح الشيخ عينيه قائلاً:

- ضعف الطالب والمطلوب.

- لكنك صاحب البيت!.

فقال في مرح طارئ:

- صاحب البيت يرحب بك، وهو يرحب بكل مخلوق، بكل شيء، فابتسم سعيد متشجعاً، فاستدرك الشيخ قائلاً:

- أما أنا فصاحب لا شيء..

فكأن الشيخ يؤذنه بالرحيل عنه، فليس له مكان في الأرض، والبيت الذي قصده لم يكن الشيخ صاحبه حتى يرحب به!!..

فكأن الدين الإسلامي، يحكم على العصاة من البشر، حكماً مؤبداً ببقائهم فيما يرتعون فيه من الإثم والخطيئة، وسبيله إلى إنقاذ هؤلاء، يقف عند طردهم من ساحته!. وهذا كذب وافتراء..

فالإسلام لم يكن أبداً هكذا، إنه يطرح في طريق هؤلاء الخطاة، مفاتيح باب التوبة المفتوح على مصراعيه، وحتى آخر لحظة من العمر،

كي يستنقذهم مما وقعوا فيه، وينتشلهم من قاع الخطايا والرذائل، وينهض بهم إلى مصافّ السمو والارتقاء الروحي والنفسي.. حيث يجدون لذة الحياة نقاءها، في نقائهم وصلاحهم ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ (١).

فالإسلام، لم يلفظ هؤلاء العصاة، أو يطردهم من دائرته المضيئة، إنما يأخذ بأيديهم ويستنقذهم، ويلح في طلب نجاتهم مرة تلو المرة، حتى يهتدوا ويؤوبوا إلى رشدهم فيَصلُحوا، ويُصبِحوا ذوي فاعلية بانية في مجتمعهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (٢)

وعندما يقع سعيد مهران في ضائقة (حادث القتل) ويهرب من الشرطة التي تلاحقه، فلم يجد إلا الباب المفتوح - باب الشيخ الجنيدي - لكنه سيجده كما عهده فارغاً من إمكانية إنقاذه!!

- سأنام ووجهي إلى الجدار، لا أودّ أن يراني أحد ممن يزورونك، إني ألجأ إليك فاحفظني..

فقال الشيخ برحمة:

- التوكل ترك الإيواء إلا إلى الله.

---

١ - سورة طه، آية ٨٢.

٢- سورة الزمر، الآيتان ٥٣ - ٥٤

فسأله بإشفاق:

- هل تتخلى عني؟.

- معاذ الله..

-هل في وسعك بكل ما أوتيت من فضل أن تنقذني؟..

- أنت تنقذ نفسك إن شئت..

فهمس سعيد لنفسه:

- أنا أقتل الآخرين..

ثم يسأله بصوت مرتفع:

- هل تستطيع أن تقيم ظلاً معوجاً؟..

فقال الشيخ برقة:

- أنا لا أهتم بالظلال..

وهكذا ألقى نجيب محفوظ باللائمة كلها على الشيخ، فقد جعل سعيد مهران يلوذ بالشيخ، كلما حاقت به نكبة أو ألَمَّ به انحراف وألح على طلب المعونة من الشيخ، الذي أوصد في كل مرة أمامه باب الأمل والرجوع والتوبة، فالمُدان في نظر نجيب محفوظ إنما هو الشيخ وليس سعيد مهران من بداية انحرافه إلى نهايته بارتكاب جريمة القتل.

فنجيب محفوظ يصر - ومعه من يوافقه من النقاد - بأن الشيخ الجنيدي لم يكن في جعبته من التصوف (الدين)، ما يشفي غلة سعيد مهران أو ينقذه مما يحل به من نهاية مؤلمة، فلم يستطع الشيخ أن

يحميه أو حتى يهديه أو يؤويه أو ينقذه.. حتى الطعام الذي وجده عند الشيخ ولعل في ذلك إيحاء للخواء - لم يكن كافياً!!.

- «من المؤسف أنني لم أجد عندك طعاماً كافياً، كما هو مؤسف أنني لم أجد البدلة، كذلك عقلي يتعذّر عليه فهمك، وسأدفن وجهي في الجدار، ولكني واثق من أنني على حق[١]..

ولعل في ذلك ما يؤكد وجهة النظر التي قصد إليها المؤلف قصداً دون مواربة، أن الشيخ الجنيدي شخصية عقيمة ليست ذات جدوى في المجتمع، من ثم يصبح الدين عائقاً عن تحقيق الأهداف الاجتماعية (العدل والحرية)، وأن الدين يعجز عن احتواء هؤلاء العصاة الخاطئين، فيعتقد هذا التصور المنحرف ويثق به حتى الإيمان.. فنراه في كثير من أعماله الإبداعية يسخر من الدين والمتدينين، ويصورهم مسوخاً شائهة (ميتة كقطع الشطرنج)، لا حركة فيها ولا حياة، إلا بالقدر الذي يدفعها به الآخرون، ولعل فيما نعرض له - من أمثلة يستطيع أن يقدم برهاناً على هذه الرؤية المتحيزة ضد الدين وعلمائه، فلنقرأ هذا الحوار الذي دار بين المسلم المتدين والعلماني في رواية» رحلة ابن فطومة» [٢].

- كيف صنعتم حياتكم؟.

- الجواب بكل بساطة: لقد صنعناها بأنفسنا.

لا فضل في ذلك لإله.. أنشأنا نظاماً للحكم حررنا من الاستبداد،

---

١ - غالي شكري في المنتمى، ص ٣٥٨.

٢- الرواية ص ١٠٦ - ١٠٧.

وقدمنا العمل ليحررنا من الفقر، وأبدعنا العلم ليحررنا من الجهل..

- أليست الرحمة قيمة مثل الحرية؟.

- هذا ما يردده أهل الديانات المختلفة، وهم الذين يشجعون العجزة على البقاء، أما أنا فلا أجد معنى لمثل هذه الكلمات..

- إلى أي دين تنتمي؟

- دين إلهه العقل، ورسوله الحرية..».

أيُّ دين هذا الذي يُفتن به الكاتب وينصح به حواره على لسان شخوصه؟ إنه الشيوعية التي يتفانى الكاتب في الدفاع عنها، ويتدله في حبها، لشدة إعجابه بها!! لما يراه فيها - من وجهة نظره - من قدرة على صنع عالم خال من المآسي والخلافات العنصرية والمنازعات الطبقية والعرقية على نحو ما نراه في روايته، إنجيل الشيوعية في مصر «الثلاثية» المحفوظية فيما أجراه على لسان شخوصه أيضاً [1]:

- «لا شك في احتقاري للفاشية والنازية، وكافة النظم الدكتاتورية.. أما الشيوعية فخليقة بأن تخلق عالماً خالياً من مآسي الخلافات العنصرية والدينية والمنازعات الطبقية.

- ولكن الإسلام قد خلق هذا العالم الذي نتحدث عنه منذ أكثر من ألف عام..!

- ولكن دين..! الشيوعية علم، أما الدين فأسطورة..».

أي دين ذلك الذي يطريه الكاتب ويتيه به فخراً - من خلال أحاديث شخوصه؟ إنه الشيوعية التي دُمِّرت معاقلها في روسيا، وهدمتها فوق

١- السكرية، ص١٥٢.

رؤوس الشيوعيين أنفسهم!! فأيديولوجية كهذه قادرة - إذن - على صنع عالم خال من مآسي العنصرية الدينية والخلافات والمنازعات الطبقية والعرقية وهي التي تدمر أمة بأسرها في قلب أوروبا - يوغوسلافيا السابقة- لا لشيء إلا لاختلاف العنصر والعقيدة، فكل ذنب البوسنيين أنهم مسلمون!!.. ولعل الكاتب نجيب محفوظ أدرك الآن بعد ما شاهد بعيني رأسه ما تقوم به الشيوعية ضد هؤلاء، فهل ما يزال يصر على رأيه!!

وإذا كان الدين في رأيه أسطورة، خرافة!! فأين الحقيقة إذن؟.

لكن نجيب محفوظ الذي ينهل من آبار الفكر الوجودي الآسنة التي ترى أن الدين (وهم يعطل طاقة العقل بتحريمه التفكير الناقد)[١]، فليس غريباً منه أن ينفث سمومه في خلايا الإبداع الفني، يطفح بالكراهية المقيتة لرموز الإسلام وشخوصه، فيسخر منهم ويُنَفِّر الناس الذين يحملون لهم قدراً من الجلال في ذاكرتهم، ويصمون آذانهم عن تعاليمهم، مما لا نستطيع تجاهه إلا أن نذعن بأنه (يكره هذه الشخصيات ويشمئز منها فيعرض عيوبهم ومساوئهم وشرهم الكامن، فيبدو وكأنه حاقد عليهم، فيعاقبهم أشد العقاب وأقساه ليدفع بهم إلى الموت أو الخراب)[٢].

فهذه صورة الشخصية الصوفية (الدينية) عند نجيب محفوظ، ولو استقصينا الصور المتعددة لهذه الشخصيات المرتبطة بالدين لما خرجت

١- الاتجاه نحو الدين وعلاقته ببعض سمات الشخصية، ص١٦، والكلام لفرويد.

٢- الرؤية والأداة، ص٣٥٢، ٣٥٣ بتصرف د/ عبد المحسن طه بدر.

عن هذه الدائرة المعتمة، قصد إليها الكاتب قصداً مكيناً، ينبع من جرأته التي تصل إلى حد الرفض للديانات السماوية، وإن كان يعلم أن جميع الديانات نُسِخَت بالإسلام، لا سيما، وهو يعرف أن سهامه موجهة إلى الدين الإسلامي، لأنه الدين الحقيقي الفاعل في بناء المجتمع وتطوره..

من ثم، فشخصية الجنيدي لم تقدم شيئاً ذا قيمة في بناء الرواية الفني، وإن استطاعت أن تسهم إلى حد ما في إتمام صورة المجتمع الذي أجرم في حق هذا اللص، فكانت الشخصية «علي الجنيدي» الصوفية أحد (الكلاب) التي طاردت (اللص) بأنها سدت أمامه طرق النجاة، ولم تستطع إنقاذه، في حين وجد السلوى والأمل في بيت (نور) البغي التي استطاعت أن تقدم له من الزاد الروحي (الحب)، والمادي (الطعام) ما لم يستطع أن يقدمه «الجنيدي» !!.

ونور هذه - لا حظ رمزية اسمها - كانت من وجهة نظر الراوي ذات فاعلية وحركة في إنقاذ اللص، فكأن العاهرات الساقطات صاحبات رسالة ونهضة اجتماعية، لم يستطع أن يقدمها الدين في شخصية الجنيدي الذي أغلق أبواب السماء في وجه اللص.. وسد أمامه منافذ النجاة مما أسقطه في بئر الخطيئة حياً، وأغرقه في قاعها ميتاً..

وهذه من المغالطات الفادحة التي يروج لها نجيب محفوظ، فأين المجتمع الذي مهما بلغ من درجات الانهيار والسقوط يقر قراره ضد الدين، أو ينقصهم عنه إلى هذه الدرجة التي تجعله يلتمس نعيم الجنة من فيح جهنم)[1].

١- أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع، ص٦٦.

وهذا المعني (المفهوم) يؤكده نجيب محفوظ، بل ويلح عليه في معظم رواياته، إن لم تكن كلها..

وفي راوية «زقاق المدق» نعثر بشخصية «السيد رضوان الحسيني»، الشخصية المتدينة التي تنطلق في تدينها من وعي صوفي صحيح، تلك الشخصية السوية الوحيدة في الزقاق، والذي يبدو من ظاهر رسمها أن الراوي يقف منها موقفاً حيادياً أو متعاطفاً معها:

« كان السيد رضوان الحسيني ذا طلعة مهيبة، تمتد طولاً وعرضاً، وتنطوي عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة، ذو لحية صهباء، يشع النور من غرته وتقطر صفحته بهاء وسماحة» [١].

فالسيد رضوان الحسيني - خلال هذا السرد التقريري يقدمه الروائي في صورة يبدو خلالها كالمنارة، ويمثل المناطق العليا والزوايا المضيئة في الفكر والسلوك أو المعتقد بالنسبة للزقاق).[٢]

إلا أن أثر هذه الشخصية وفاعليتها في الزقاق تكاد تكون مبتورة تماماً، ليست بذات قيمة في هذا المجتمع (الزقاق) الغاص بالانحرافات السياسية والاجتماعية والنفسية والجنسية، وغيرها، (زقاق النحس)، ولْنرَ ذلك في مواقفه المختلفة ولا سيما الإصلاحية مع أهل الزقاق، لنتعرف على مدى مصداقية هذه الشخصية وفاعليتها في تقويم انحرافات أهل الزقاق ووجهة نظرهم في هذا الشيخ المتدين.

---

١ - زقاق المدق، ص١٠، ١١.

٢ - الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ، ص١٠٤ . وللاستزادة يراجع نفس المصدر، ص٩٩: ١١٣.

فعندما ذهبت أم حميدة تستشير «السيد رضوان الحسيني» في أمر رفض حميدة لخطيبها الأول عباس الحلو - الذي كان قد قرأ الفاتحة عليها- ورغبتها في الزواج من السيد سليم علوان (صاحب الوكالة) الثري، فرفض السيد الحسيني - احتراماً للفاتحة واعتبارات أخرى اجتماعية ودينية أيضاً، فقد قال رسول الله ﷺ:

«لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه ولا يبع على بيعه..» [1].. كان موقف «حميدة» من السيد رضوان الحسيني وخطاب والدتها كالآتي:

« وأصغت الفتاة إليها والشر يتطاير من عينيها، ثم صاحت بصوت جاف فضخ الغضب قبحه:

- السيد رضوان وليٌّ من أولياء الله، أو هذا ما يجب أن يتظاهر به أمام الناس، فإذا قال رأياً لم يبال مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء أمثاله، فسعادتي لا تهمه في كثير أو قليل، ولعله تأثر بقراءة الفاتحة كما ينبغي لرجل أن يرسل لحيته مترين، فلا تسألي السيد عن زواجي، وسليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة! أما والله لو كان طيباً كما تزعمون لما أصابه الله في أبنائه جميعاً..».

وارتاعت المرأة وقالت لها بإنكار وألم:

- أهذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم؟

فصاحت الفتاة بحدة وقد أنذرت حالتها بشر مستطير:

- هو فاضل إن أردت، وولي من أولياء الله إن شئت، ونبي أيضاً إن أحببت، ولكنه لن يقف حجرة عثرة في سبيل سعادتي..

---

١ - سنن النسائي كتاب البيوع - باب سوم الرجل على سوم أخيه، رقم الحديث ٤٥٠٢، ص ٢٥٨، المجلد السابع - دار البشائر الإسلامية - د ت - مصر.

- ولكنك مخطوبة..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت:

- إن الفتاة حرة حتى يعقد عليها، وليس بيننا وبينه إلا كلام وصينية بسبوسة!.

- والفاتحة؟..

- المسامح كريم...

- الفاتحة ذنبها كبير..

فصاحت باستهانة:

- بليها واشربي ماءها..

نلمح وراء كلمات «حميدة» شخصية نجيب محفوظ، لأن «حميدة الجاهلة» بنت الزقاق لا تستطيع أن تدير حواراً على هذه الدرجة من الثقافة والفكر، إذن.. ما قالته هو ما يريد نجيب محفوظ أن يقوله، وإني لأعجب كيف يقول على لسان حميدة عن الفاتحة: بليها واشربي ماءها؟.. !!

فهذه الجرأة لا يمكن أن تقدم عليها مثل هذه الفتاة.. المعروف أن البسطاء أكثر تخوفاً وأقل جرأة من مثل هذه العبارات من كثير من المثقفين.

وهذا الموقف أيضاً يطعن في فنية الرواية، لأن المطلوب من الكاتب عندما يلجأ إلى الحوار أن يراعي مستويات الشخصية التي تنطق به من ناحية السن، والفكر والثقافة، والمكانة الاجتماعية، وإلا وجدنا الكاتب يطل بشخصه من وراء هذا الحوار، والقوانين أو المواضعات الفنية حرمت عليه ذلك.

وانتهى الحوار بانتصار حميدة على والدتها والسيد رضوان الحسيني. واتفقتا على إتمام الصفقة معاً في الغد، إلا أن القدر كان أسرع من مؤامراتهما فكاد أن يختطف السيد سليم علوان!! [1]

١- زقاق المدق، ص: ١٤٢، وما بعدها.

فالكاتب، هنا، وإن كان يصور شخصية السيد رضوان الحسيني تصويراً لائقاً يكاد يصل به إلى درجة الأنبياء، أو الملائكة.. إلا أنه لا يفتأ يسخر منه في كونه رجلاً - في نظر حميدة بطلة روايته - يتظاهر بالولاية أمام الناس، «لا يبالي مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء.. سعادتي لا تهمه.. يرسل لحيته مترين.. لا تسأليه عن زواجي، واسأليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة.. لو كان طيباً لما رزأه الله في أبنائه جميعاً..».

فالشيخ الذي يرفض ارتباط حميدة بالخاطب الجديد (سليم علوان)، لكونها مرتبطة بخاطب آخر، «عباس الحلو» لم يتركها بعد من منطلق أن الدين يرفض مثل هذا السلوك المتخلف، كما أوصى الرسول ﷺ «لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه حتى يترك..» لم يقنع الكاتب برؤيته هذه في نظرته المتوارية وراء شخصية «حميدة» التي أبدعها هو، وصنعها على عينه، فيرى أن الفاتحة شكل أو عادة اجتماعية، ليست بذي قيمة حتى تقف حجر عثرة في سبيل حريتها في اختيار من تحب، ولعلها آثرت هذه الحرية التي ساقتها إلى بيت فرج (سمسار الدعارة) حتى نهايتها المفجعة، لذا أعلنت في إصرار وتبجح، أن الشيخ الحسيني بآرائه هذه «لن يقف حجر عثرة في سبيل سعادتي» ولن هنا، كما يقول النحاة، تفيد تأكيد النفي في المستقبل، فضلاً عن تأبيده في رأي الآخرين منهم.[1] مما يؤذن بأن الأمل مفتقد حتى في المستقبل من الاستجابة لآراء الشيخ الحسيني.

---

١ - راجع شرح المفصل لموفق الدين بن يعيش، المجلد الثاني: ٨/١١١، ١١٢. مكتبة المتنبي - د ت - القاهرة. وكتاب الكشاف للزمخشري ص: ٥٤ الجزء الثاني، ت: مصطفى حسين أحمد. دار الريان للتراث ط: الثالثة سنة ١٩٨٧م.

فالروائي نجيب محفوظ أراد أن يقرر رأيه في هذه الشخصية التي ارتبطت صورتها بالدين، فإنه على هيبته وجلاله وثقة الناس به،إلا أن صلاحَه تصنُّع، وإيمانه تظاهر، ولا يبالي بمصالح الآخرين، وأنه متمسك بما لا يفيد، ولا يصح لمثله أن يفتي في شؤون الحياة وظواهرها الاجتماعية كالزواج وغيره، إنما فهمه لا يتعدى تفسير الآية أو السورة ليس إلا!!، وأن آراءه ليست ذات قيمة في البناء الاجتماعي، ولا تسهم في تطوره، ولو كان كما يعرف الناس عنه، أو يظن هو نفسه لما عاقبه الله بموت أبنائه جميعاً، فيبدو هكذا كالشجرة العقيم ليس لها ظل ولا ثمر، لاسيما وهو رجل يعاني من الفشل واليأس في حياته..!!

« كانت حياته وخاصة في مدارجها الأولى - مرتعاً للخيبة والألم، فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أروقته شوطاً طولاً من عمره دون أن يظفر بالعالمية، وابتلي إلى جوار ذلك - بفقد الأبناء، فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال، ذاق مرارة الخيبة حتى أتسرع قلبه باليأس أو كاد..[1]

وبهذا قدمه في صورة الإنسان الحاقد على الناس والمجتمع، فلا خير يرجى من ورائه...

ولجوء الأم (أم حميدة) إلى السيد لم يكن إلا إجراء شكلياً قصدت منه إغاظة ابنتها فحسب، لكنها رضيت بما اقترحته ابنتها رغبة منها في حياة رغدة في ظل ابنتها:

١- الرواية، ص: ١١.

«إذا تزوج رجل مثل السيد سليم من فتاة، فهو في الواقع إنما يتزوج من أهلها جميعاً، كالنيل إذا فاض أغرق البلاد، أفهمت..؟ أم تحسبين أن تزفي إلى قصرك الجديد وأُلقى أنا هنا تحت رحمة الست سنية عفيفي وأمثالها من المحسنين؟!» (1)

فالمشكلة في نظر نجيب محفوظ هي الفقر، فهو الذي دفع حميدة إلى ترك خطيبها التي تحبه إلى شخص آخر لا يتمتع بأية صفة تحبب الناس فيه إلا المال..

ثم انحرافها بعد ذلك، وسيرها في طريق الخطيئة كان أيضاً لدفع الفقر عنها، فالفقر هو العدو اللدود للإنسانية، وفي القضاء عليه قضاء على كل الرذائل كما كانت تزعم الشيوعية قبلاً، وجاء انهيارها فضيحة لكل ما تعتنق.

هكذا ينتصر الجميع على الشيخ «الحسيني» في رأي نجيب محفوظ!!

فنجيب محفوظ عندما يصور هذه الشخصيات (الصوفية) لا نستطيع اكتشاف هل يسخر منها المؤلف أو يرضى عنها! وإن نَمَّت هذه الشخصية عن كراهية مستحكمة لمثل هذه الشخصيات، وإن كان بعض النقاد يقول بحب «نجيب محفوظ» لمثل هذه الشخصيات لاسيما شخصية «السيد رضوان الحسيني» الذي يرفعه إلى مرتبة ملائكية غاية في السمو، إلا أن حضوره في الرواية لا يمثل أهمية أو فاعلية في بنائها الفني، فلم يحضر إلا لإلقاء الخطب والعظات- التي يرتفع مستواها كثيراً عن

١- الرواية ص: ١٤٤.

مدارك مستمعيه من سكان الزقاق وغيرهم[١]، في أسلوب تقريري فجّ يبدو عائقاً لانطلاق الرواية وتقدمها على المستوى الفني، حتى وإن كنا لا نقبل من هذا الناقد موقفه من شخصية السيد رضوان الحسيني في رواية نجيب محفوظ (زقاق المدق) في كونها تنبئ عن رفض الكاتب للمادة، وتعلقه بالروح، فتؤكد كذلك على رضانا، وموافقته بحكمه على تصويره لهذه الشخصية بصورة تشي بعجزه إلى حد كبير عن تصوير الجانب الذي يحبه، بحيث تبدو شخصياته المادية الطموحة أكثر حيوية (حميدة)، من شخصياته الروحية الراضية (السيد رضوان). وليس ثمة تبرير لمثل هذا الموقف، إلا أن المؤلف لم يكن يرى في الواقع إلا الجانب الذي يكرهه (المادي)، أما الوجه الآخر للحياة (الروحي) فكان حلماً لا يمارسه ولا يفهمه [٢].

فشخصية الصوفي (السيد رضوان الحسيني) جسدت - في تورية مفضوحة - موقفه من الدين وعلمائه الذين لا يلبث أن يفحَّ سمومه ما سنحت له الفرصة دون مواربة أو حرج، انطلاقاً من رؤيته التي ترمي إلى هدم الدين، والتي في ظننا تكون لديه من إيمانه بالشيوعية التي لا تعترف بدين ولا بإله..

لقد فتن نجيب محفوظ إلى حد الانبهار بالشيوعية مما حدا به إلى الحكم بخرافة العقيدة وعدم جدواها، بل يَسِمُها: بأنها معطلة للتطور الاجتماعي، والإبداع الفكري، وأن دعاة التمسك بالقيم والفضائل والمثل

---

١ - الرؤية والأداة، ص: ٣٥٤.

٢- نفس المرجع، ص:٣٥٣.

أناس متخلفون منكفئون على أنفسهم، يتجرعون الألم والحسرة وخيبة الأمل، ويتعشقون الظلام، يلتصقون به ولا يبرحونه.. حتى إن السيد رضوان الحسيني عندما ينوي الخروج أو الانعتاق من كابوس الحارة لم يبرحها إلى المجتمع خارج أسوار الزقاق، ولم يستطع تحطيم السور المرتفع الذي أقامه بينه وبين المجتمع خارج الزقاق، لكنه فارقها إلى أداء فريضة الحج، لتكتمل عقيدته ليس غير، حتى إنه لا يرغب في العودة إلى مجتمعه مرة أخرى.

- «أخي لا تذكرني بالعود.. إن من يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من خواطر الحنين إلى الوطن، حقيق بأن يبطل الله ثوابه، ويخيب دعاءه وينفد سعادته» (١).

فالخروج يمثل هروب «السيد رضوان الحسيني» إلى العالم الآخر، لأنه في اعتقاد نجيب محفوظ لا يصلح أن يفتي أو يواجه مشكلات الحياة، وليس باستطاعته فعل شيء تجاه ما يحدث في الواقع، فلذا آثر السلامة، وحمل عصاه ورحل حيث يريد البقاء..

أما شخصية (الصوفي العالم) «الشيخ عبد الله»، في رواية «عمالقة الشمال» لنجيب الكيلاني، فإنه يمثل المنقذ لمريديه، لا سيما، عندما يحارون في تفسير بعض مجريات الحياة، أو يتكيفون مع حوادثها وتقلباتها، فيجدون يد الشيخ تنتشلهم من حيرتهم، وتأخذ بأيديهم إلى شاطئ الأمن والطمأنينة كلما عَثُرت بهم العثرات. يضع نفسه في قلب معاناتهم، فيتقاسم آلامهم، ويشاركهم آمالهم، ويُثري في قلوبهم بواعث

١ - زقاق المدق، ص: ٢٧٠.

الإيمان، ويغذي نفوسهم بأشعة النور التي تغرق هذه القلوب الحائرة، فيأخذ بهم إلى حالة من السكينة النفسية التي يسبغها عليهم الإيمان العظيم... فلنر دوره في استنقاذ تلميذه الداعية المسلم «عثمان أمينو»، لا سيما عندما يطارده طيف الفتاة «جاماكا» المتنصرة، عندما وجد في نفسه ميلاً إليها، مما زاد من خوفه وارتباكه الذي قض مضجعه، فلم يجد إلا شيخه يستفتيه في هذا الأمر فيسرع إليه:

- سيدي وإمامي.. في القلب حاجات وفيك فطانة..

ابتسم مسبل الجفنين وهمس:

- أي عثمان.. أشواق الإنسان لا نهاية لها..

- أشواق منحرفة يامولاي..

- ما دمت قد عرفتها فلا تخشها.. أعطيت لها الصادق في الصفات، ففيم الخوف والشتات؟؟.

قلت في قوة:

- أجل.. أشواق.. لكن لها صفة الانحراف...

- هز الشيخ عبد الله رأسه وقال:

- اخلع نعليك.. وانزع طاقيتك.. وانظر إلى السماء واهتف سبحان الله.. والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكانت كلمات شيخي أمراً لا يرد.. خرجت قبيل الفجر حافياً، عاري الرأس أضرع إلى الله.. شعرت ببرد الراحة يسكن بين ضلوعي[1].

---

١ - عمالقة الشمال، ص: ١٤ - ١٥.

فالشيخ عبد الله لم يقف مكتوف الأيدي أمام مريده «عثمان أمينو» لكنه يمد له يده، فيفرّغ في قلبه شحنة من إيمانه، يفتح أمامه باب السماء، ويطمئنه بأنها أشواق، وأشواق الإنسان لا حد لها.. وما دام يعرفها فلا خوف منها ولا جزع، والبرء منها طريقه السماء.. العبادة..

وعندما تقتحم هذه الفتاة على «عثمان أمينو» خلوته، وتجاهره برغبتها فيه.. (أريد أن أكون لك).. وعثمان يرى أن ذلك (محاولة مستحيلة.. دونها الموت.. فهي متنصرة، وهو مسلم، وهي ممرضة وهو داعية، وهي من الإيبو، وهو من قبائل الفولاني)[1].. فأيقن أن هذا امتحان وبلاء من الله، فلم يجد إلا شيخه يهرول إليه ليقينه به، لأنه واجد لديه مخرجاً من هذه الورطة:

- مولاي..

صاح بأغلى صوته دون أن يفتح عينيه:

- استغفر الله يا عثمان.

- مولاي..

- انتظر حتى تتم الصلاة.

كانت دموعي تهطل بين الركعات والسجدات، تبلل وجهي ولحيتي السوداء الصغيرة، وبللت القطرات موضع السجود.. انتهت الصلاة، وقرأنا الأوراد وأخذ الدراويش ينصرفون واحداً بعد الآخر وهم يصافحون الشيخ ويقبلون يده. كم كانت دهشتي عندما سمعت الشيخ يقول وهو مغمض العينين:

١- محاولات جديدة في النقد الاسلامي، ص ٢٢١.

- اذهب بتجارتك على الفور صوب الجنوب.. ولا تصحب «نور» معك..

- مولاي..إنه فقير مسكين.

- ولتعطه أجره لوجه الله..

- ما جئت لأمر كهذا..

- هذا هو الجواب.. افعل ما تؤمر..

وأخذ يردد: يا مغيث أغثنا، واكشف عنا السوء، ثم سمعته يزجرني: قل معي يا عثمان.. قلها ألف مرة..».

وأخذت أردد الضراعة بقلب متعلق بالله، كنت أشعر أن سحب الخوف والعناء تنقشع وأن مشاعري ترقّ وتصوفو، وما إن انتهينا من الورِد المذكور حتى سمعت شيخي عبد الله يقول:

- الشيطان لا يكف عن قرع أبواب المؤمنين.

صحت وأنا أشهق باكياً:

- إنها امرأة يا مولاي..

ابتسم الشيخ في هدوء، ومسح على رأسي وظهري، وقال:

- «يأتي الشيطان في شكل امرأة.. وقد يظهر بثوب سلطان على رأسه تاج، وقد يخطف بصرك على صورة قطع من الذهب والمجوهرات.. المال شهوة.. والسلطة شهوة.. والنساء شهوة.. هل فهمت؟؟.

طأطأت رأسي في استحياء وتمتمت:

- المصيبة أن قلبي خفق لها..

- لن يحاسبك الله إلا على ما جنت يداك.

- فتاة متنصرة من الإيبو.

- عندئذ فتح الشيخ عينيه، وتنهد ثم قال:

- لم «يعلموها من الدين إلا أن المسلمين في النار.. وأن الرقص والشراب والإباحية هي المدنية.. فهي مدنية خراب.. صنعها فكر سقيم يبغي التدمير.. الشرع يبيح زواجك منها، ولكن لا تنس أن مسلمة خير منها ولو أعجبتك..».

فالشيخ عبد الله يحاول ببصيرة المؤمن، وعقلية المحنك، أن يهدي مريده إلى الصواب.. فعلاجه أن يرحل عن مصدر الألم والقلق، ويرحل بتجارته إلى الجنوب يهاجر في سبيل الله لكسب عيشه، وجهاده في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، فيؤدي واجبه نحو عقيدته ونفسه، ويبتعد عن مصدر الشر الذي يدفعه شيطان هذه الفتاة «جاماكا».. فإنه مَعْنِيٌّ بمهمة أَجَلّ وأعظم، من الانشغال بحب هذه الفتاة النصرانية، مهمة الدعوة ونشرها بين مناطق القبائل النيجيرية في الجنوب، التي لم يصلها دعوة الإسلام، وتحاصرها في الوقت نفسه حملات التبشير الصليبي بكل عتادها ومؤنها مما يصنع الحياة على الأرض تكاد تجف ينابيعها فيها.. وهو يعلم - الشيخ - مدى تفاني عثمان الداعية وحبه لمثل هذه المهام، وشرد الشيخ ثم أغمض عينيه، وهتف:

«حي.. قيوم.. علام الغيوب.. إذا نزلت يا عثمان أحراش اليوروبا.. وظلمات الإيبو.. فابعث بكلمات الله في كل مكان، وادع البشر هناك إلى عبادة الواحد.. وقل لهم كونوا إخوة.. وحطموا الأصنام الجديدة، وأطلقْ

كلماتك في الصحراء.. في الغابات.. في المناجم.. في المصانع.. ولا تخش إلا الله، وليس من المكتوب هروب..

ولو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك بشيء، لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» [١].

.. شيخي، قلبي يرتجف من الخوف.

- «لا قيمة لذلك..».

- وابحث عن الاطمئنان.

- ستجده.

- كيف؟؟.

- عندما تطلق شهوات الدنيا.

فالشيخ هنا يضع نفسه في قلب هموم مريده، وما يقع له من مشكلات أو أحداث، فيعيش الحياة كما يعيشها مريده بكل زخمها وموارها، فإنه بشر ككل البشر، يأكل وينام، ويصوم ويفطر، ويخلو إلى نفسه فيذكر الله، ويفكر في أمر نفسه وحياته، ويحب الناس في إطار حبه لله ورسوله، فهم خَلقُ اللهِ الذي يُحبُ اللهَ ورسولهَ فيهم، يقوى ويشمخ، ويضعف فيبكي وتسيل دموعه حَرَّى، وتنتابه حالات من التردد والحيرة، شأنه شأن غيره من الناس.. يعيش الحياة بكاملها، ويؤدي ما عليه من واجبات النصح والإرشاد المقنع، الذي يقع من نفس المتلقي

١- عمالقة الشمال، ص:٢٤.

كالدواء الناجع للمرض العضال، يعيش الحياة بكاملها لا ينصرم عنها، باختيار دقيق لكل ما يُقدِم عليه من سلوك أو تصرف، فلا يبرح الإطار الإسلامي الذي يفرز النموذج البشري المثالي بمفهوم التصور الإسلامي، منطلقاً إلى الآفاق الرحبة لكي يسهم في خلق مجتمع متجانس وقادر على إفراز نماذج أخرى على صورة هذا المثال.. فلا يتقوقع، أو ينكفئ في خلوة مظلمة على نفسه، ذاهل عمن حوله، لا يعي ما يدور حوله في المجتمع، خارج دائرته المعتمة كما وجدنا - هذه الصورة- في روايات نجيب محفوظ مثل شخصية الجنيدي، أو رضوان الحسيني...

وعندما قتل الزعيم الإسلامي «أحمد و بيللو» الذي كان يذود عن شمال نيجيريا المسلم، ويقود جيوشها ضد المستعمر الصليبي، اجتاحت البلاد نكبة راح ضحيتها المسلمون في هذا الإقليم، واجتاح الناس خوف مباغت على مصائرهم، فما كان من الشيخ إلا أن ينهض يروّض خوفهم، ويثلج قلوبهم، ويطمئنهم بأن الموت غاية الشهداء في سبيل الله ووسيلتهم إلى الآخرة:

- من قال إن الطوفان أعمى؟؟.. للطوفان عيون يلتقط بها ما يشاء، ليدمره أو يغرقه.. وما انطلق الطوفان إلا بإرادة الله. وإذا بدأ الطوفان قاسياً ظالماً، فتذكروا حكمة الله الكامنة خلف الأشياء.. وإذا هلك الشيطان يا أبنائي فلن يكون هناك صراع.

.. ليس القاهر هو الطوفان، ولكن القاهر هو الله.. اذكروا ذلك جيداً.. ولا تقولوا انتهى أمر «أحمد و بيللو» ولكن قولوا أراد الله لقاءه.. فلبَّى الشهيد النداء.. نحن لا نسمع هتافه وهو سائر في الطريق إليه..

لكنه لا شك كان يقول:مرحى...مرحى.. هذا يوم اللقاء العظيم.. واغرورقت الأعين بالدموع، ثم انسكبت حتى بلّلت اللحى، وشهق البعض باكياً.. وصاح شيخنا نافراً:

- لا تنتحبوا.. بل رددوا معي، العزة لله ولرسوله، وللمؤمنين «رددوها ألف مرة..» وما إن انتهينا من الوِرْدِ المطلوب، قلت لشيخي:

- وما ذا تفعل؟..

قال:

- سل قلبك..

قلت: في القلب ترتجف أمنيات كثيرة، ولا تعرف كيف تنبثق؟..

- قل كلمة الحق.

- إنهم يقيمون في طريقها السدود يا شيخي الجليل.

- قل ولا تخف..

- الموت والسجن يترصّدان لنا..

- هذا هو الجهاد.. بعضنا سوف يفلسف ضعفه، ويتقاعس بحجة أن الظروف لا تسمح، والكفاح قد يكون حماقة، ولا تصدقوا هذه الكلمات، لأنها الموت بعينه.. الحق لا ينتصر إلا بالمجاهدة المستمرة.. لقد تعلمنا أن الموت ليس خاتمة المطاف.. الموت مرحلة إلى الدار الثانية.. وهي أروع، فكيف نحجم عن النعيم المقيم؟؟...

هل تذكرون؟؟.. أن عصا واحدة قهرت جيشاً يعد بالآلاف، تلك عصا موسى وجيش فرعون الجرار.. والشهداء هم النخبة الممتازة التي يختارها الله.. سأراكم غداً تسيرون في الطرقات وتعلنون كلمة الحق جماعات وفرادى.. ولا ترهبوا الحديد والنار.. عزيمة المؤمن أقوى من الحديد، وأقوى من النار.. انطلقوا يغفرِ الله لكم..» [١].

فالشيخ - رغم فداحة المصاب - إلا أنه لم يجلس بين مريديه، يندب القدر الذي اختطف البطل «أحمد و بيللو» قائد الحركة الإسلامية في شمال نيجيريا، والذي يقف بالمرصاد لكل محاولات الاختراق السياسي والعسكري والعقدي.. يعقد الجميع عليه الأمل في القضاء على المتآمرين من اليهود والصليبيين على المسلمين هناك، إلا أنه راح يبثُّ فيهم الأمل في الغد القريب، وأنهم لا بد منتصرون مادامت عُراهم وثيقة بالله، وأنه سيراهم قريباً يحملون مشاعل النور في الطرقات وبين الفيافي، فينفح أرواحهم بعبير الإيمان، فتعبُّ منه النفوس حتى تثمل، فتنشط، وتبحث، وتتمرد، وتجاهد:

«كأنما شحنني شيخي بزاد روحي لا ينفد، فشعرت بأنني أستطيع أن أحقق المعجزات، وأفعل المستحيل، ونظرت إلى السجانين عن كثب، وإلى الأسوار العالية الضخمة والأسلاك الشائكة، نظرت إلى ذلك كله فبدا لي تافهاً لا خوف منه ولا قيمة له، وتمتمت في يقين: إنه وحده هو القاهر» [٢].

---

١ - عمالقة الشمال ص ٨٤.

٢- عمالقة الشمال ص ١٣٨.

.. فمن جراء ما كان يقوم به من جهود في حقل الدعوة الإسلامية في نيجيريا أُلقِيَ به في سجن النظام الشيوعي لقاء جهاده ووطنيته وانتمائه العقدي، ولعلها طبيعة الأنظمة الدكتاتورية في كل مكان!!، إلا أن نفسه الأبية، العزيزة بالإيمان والنفحات الروحانية التي ينفثها شيخه في روحه كان زاداً روحياً عظيماً، أبدله بالذل عزا، وبالقيد حرية، وبالعجز قوة لا تدانيها قوة، إذ إنها مستمدة من قوة القاهر (عز وجل).

.. وفي السجن يتآلف الناس حول الشيخ، وينعمون في جواره بالحب والطمأنينة، وعندما يستجيب بعضهم لفتنة قائد السجن يَهُبُّ الشيخ ينبههم بما يحاك لهم في الظلام:

«رأيت شيخي عبد الله يشرق بوجهه الطيب، واقتحم المعمعة كفارس تقليدي معمم دون تردد أو وجل، وصرخ صرخة اهتزت لها جنبات السجن:

- كفوا أيديكم أيها الإخوان..

وأصيب العراك الحامي بالشلل، توقفت الأيدي والعصيّ والأرجل، ووقف كل في إمكانه، وارتمى في ساحة المعركة رجلان يئنان من الجراح، وشُدَّت الأعين والأسماع إلى الرقعة الصغيرة التي كانت تشتعل خلافاً ووحشية منذ لحظات، وتجلى الشيخ في الوسط كينبوع من الصدق والشجاعة والحب والإيمان ونادى بأعلى صوته:

- يا أبنائي الأعزاء.. كلكم أبنائي.. إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار.. هذا ما قاله نبيكم (صلى الله عليه وسلم).. ومن قديم كانت المعركة الأصلية هنا - وأشار إلى قلبه - فمن انتصر

على نفسه الأمارة بالسوء.. دانت له الدنيا، وخضعت له رقاب الجبابرة.. النصر آت لكنكم قوم تستعجلون، والموت لا بد آت، ففيم الخوف، والجنة معدة للمتقين، فَلِمَ تهرولون إلى النار.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.. قوموا إلى الصلاة يرحمُكم الله..» (١).

- ومتى كانت الخيانة طريقاً للأمن والسعادة والاستقرار؟..

قال شيخي:

- «انظروا إلى السماء.. نحن في آخر الشهر العربي.. والظلام دامس.. والنجوم تقاوم الظلمة.. لكن لا تنسوا القمر، سوف يسطع عما قريب، واذكروا أن بعد الليل نهاراً..

هكذا الدنيا.. لكنكم قوم تستعجلون..

قلت في مرارة:

- «يا شيخي.. الطغيان يتوطد.. والسفلة يسودون..».

وابتسم وقال:

- عندما يعجز البشر.. تأتي سفينة نوح.. أو تنقض صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.. يا أبنائي ارفعوا راياتكم الخضراء، واكتبوا عليها:

- «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين».. والله سبحانه لا يخلف وعده.. ما دمنا مؤمنين.

فالروائي نجيب الكيلاني أبى إلا أن ينقلنا إلى هذا الجو الإيماني الشفيف، فأتاح لنا فرصة التواصل مع الشخصيات ومعايشتها حتى النخاع من خلال هذه اللغة الرقيقة الدافقة.

---

١ - عمالقة الشمال، ص١١٠.

obeikandl.com

.. قدم هذه الشخصية الواعية المدركة لدورها فأقنعنا بالدور الرائع الذي يجب أن يتشبث به كل داعية مصلح تشربت روحه تعاليم الإسلام.. ونلحظ تعاطف الكاتب مع هذه الشخصية، ولعل هذا التعاطف نابع من معاناته التي لقيها في سبيل دعوته، لأنه عانى وعايش مثل هذه المحن عندما حكم عليه بالسجن في قضايا «الإخوان المسلمين» في مطلع عصر الثورة المصرية، وذاق من العذاب والمعاناة ما ولَّد لديه شعوراً جارفاً تجاه مثل هذه الأحداث.. لكن هذه المعاناة وتلك الأحاسيس القاتلة تبدلت بها معانٍ قادرة وعظيمة بفضل وجود الشيخ عبد الله الصوفي الذي كانت نفسه تمثل صخرة - إن صح التعبير - تتحطم عليها هموم وهواجس وآلام المسجونين.. كل المسجونين.

وجد الكاتب في هذه الشخصية عزاء لما لقيه من عنت في حياته الخاصة مستغلاً بعض تقنيات البناء الفني من حوار ومنولوج (حوار داخلي)، وخطابة وغيرها، ما ينقلنا إلى هذا الجو العابق برحيق الإيمان، والمضيء بكلمات الشيخ ذات الروائح الندية التي تعبق في جنبات السجن، فأبدلت بجَوّة الخانق هذا الجو الإيماني الرحيق، حيث تتردد بين جنباته الدعوة للقيم والفضائل والمبادئ السامية، ودعوة للتخلي عن الانكسار والانهزامية التي يفرضها مثل هذا الجو المقيت..

فالشيخ بتفاعله وقدرته - بما وهبه الكاتب من معطيات إيمانية ومقومات إنسانية - استطاع أن يضفي على عالم الشخصيات جميعاً، ولا سيما، شخصية المريد الداعية «عثمان أمينو» هالة من الطمأنينة والسكينة أخرجته من دائرة الحيرة، وعالم القلق والاضطراب النفسي تجاه ما يقابله من مشكلات، أو يجول في نفسه من خطرات يعجز

أمامها.. فيجد الحل والمخرج في الملاذ الإنساني أولاً، شيخه الجليل عبد الله، فكان يثري روحه ويهذبها بمشاعر الحب في الله، والتواد مع البشر في إطار من الإسلامية السامية..

فالروائي نجيب الكيلاني خلال هذه الشخصيات يطمح إلى عالم من السمو والشفافية (الواقع الطامح)، حيث يتجاوز الروائي العالم الواقعي (الحادث) إلى هذا العالم الذي يوحي بالقضايا التي يؤمن بها القاص، أو يدعو إليها (فالواقعية في الفن انتقاء واختيار) [1] لما يحقق له هدفه في الرواية.

فالشيخ لم ينقطع للعبادة في صومعته، مُطَلِّقاً الدنيا، وما تزخر بها من قضايا ومشكلات تختلف باختلاف منطلقاتها وتوجهاتها في المجتمع، كما يحدث في روايات «نجيب محفوظ» الذي لم يقف حتى عند تصوير الواقع فحسب، بل يقدم بجراءة على تشويهه إذا تعلق بالشخصيات الإسلامية.. فذهب يستلهم هذه الأفكار المشوهة يصم بها الواقع الذي يرسمه، من ثم لم تستطع شخصياته أن تقدم النموذج الإسلامي السوي، لأنه أراد تشويه هذا النموذج لحاجة في نفسه...

فالصوفية الحقة البعيدة عن الانحراف لا تعني هذا الانكفاء أو الانعزال، إنما هي حياة وحركة يتحرر الإنسان خلالها من الدنيا حتى لو ملكها عريضة، فهو لا يخضع لشهواتها، وإنما يوظف ما يكسبه، وما يناله منها عن طريق الحلال، يوظف ذلك لخدمة الفقراء والنهوض بمجتمعه، فيتحرر من الجاه والانغماس في الملذات من الجري وراء

١- فنون الأدب ص ١٢٨ لتشارلتن، ت د/ زكي نجيب محمود - لجنة للتأليف والترجمة - مصر.

المال، ومن حب السلطان، ومن حب الترف، ومن الصفات التي تتنافى مع الفضيلة.. (هذه الوسائل تؤدي إلى الصفاء، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة، وهذه المشاهدة هي أسمى درجات المعرفة، وهي الغاية النهائية التي يسعى وراءها ذوو الشعور المرهف والفِطر السوية والشخصيات الربانية) [١].

وشخصية الشيخ هنا في رواية «عمالقة الشمال» كانت مكملة لحركية البطل الداعية المسلم «عثمان أمينو» في أسلوب أشبه بالدائرة (الأسلوب الدائري).. فمن خلاله استطاع البطل الإيغال في الرواية، وأمكننا نحن المتلقين من سبر أغوار نفس البطل، واستكناه دوره في هذا العمل، من ثم تآزرت الشخصيات على إبراز بعض القيم والفضائل، ما نستطيع أن نجعلها (البطل الحقيقي) في الرواية، فجميع الشخصيات أسهمت بدور فاعل في بلْورة هذه القيم أو الفضائل التي يؤمن بها المؤلف أو القاص، بدون تكلف أو مباشرة، فَوَعى نجيب الكيلاني دوره وأمسك بكل خيوطه، ولم يدع أحدها يفلت من يده، فظلت مشدودة حتى النهاية، ما تشد به وجدان القارئ كذلك، فتلفحه حرارة الأحداث وتدفقها، ويشده فوران المواقف وتجاذبها، وتقلب الشخصيات وتفاعلها، فيتلاحم المتلقي مع المبدع من خلال هذا التآلف، أو التلاقي الذي خلقه المبدع بصدقه الفني.

(فالشيخ عبد الله.. رغم سمو تجربته الروحية التي تسلكه في عِداد زعماء الحركات الصوفية، فإنما هي ظل، وهو في القمة النورانية

١- قضية التصوف، ص٤٥، د/ عبد الحليم محمود - دار المعارف - ثالثة - د ت - مصر.

الشفيفة، ذلك الرجل الواقعي الفاعل في صميم الحادثة التاريخية.. إنه يحب ويكره، يقبل ويرفض، يفرح ويتألم، يقاوم بالفعل والكلمة.. فينتهي الأمر به إلى السجن.. رجل في قلب الواقع.. لكنه حتى وهو في أعماق سجنه بطل، ذلك المؤمن الحر في الخوف والحزن، لا تتجاوز قيود السجانين كعب حذائه..!!. ينظر دائماً من نافذة هذه الحرية التي منحه إياها الإيمان العميق بالله، ينظر إلى المستقبل بثقة واطمئنان، إن الله مع عباده المؤمنين، وليحدث الطوفان بعد هذا.. إنه لن يدمر ويعمل في التاريخ بعشوائية، لكنه سيغسل ويطهر ويفتح الأبواب الموصدة لكي تتدفق أنهار القيم النظيفة في مجاريها.. إن الله مع عباده المؤمنين..

ومن خلال هذه المعادلة كان بمقدور الشيخ عبد الله والقلة المؤمنة معه أن تقف لا بمواجهة الأعاصير التي اجتاحت عمالقة الشمال فحسب، ولكن بمواجهة العالم كله، ومن ثم كان الشيخ عبد الله بمثابة الجزيرة الخضراء التي يتنادى - إليها الخائفون والمحزونون والمطاردون فيمنحهم الثقة والأمل والسعادة والاطمئنان.. إنه ليس بدعا في تاريخ الإيمان الطويل، إنه واحد من أولئك المتصوفة الكبار الربانيين، لا الرهبانيين، الذين صنعوا تاريخ الإسلام في أفريقيا، وفي مساحات واسعة أخرى من العالم).

(الشيخ عبد الله شخصية فنية مقنعة ومؤثرة.. أخلص الكيلاني في إبداعها على هذا النحو الإبداعي العظيم من خلال الإطار - الرؤية الإسلامية الناصعة التي تتعانق خلالها القيم النبيلة والمواقف السامية.. ونحن عندما نضعها جنباً إلى جنب مع شخصية «عثمان أمينو» يتبين

لنا كيف يصنع الإسلام الشخصيات المتنوعة.. كيف يرسم الآفاق الممتدة، المتدرجة التي يعقب أحدها الآخر ويمتد وراءه إلى المشارق البعيدة التي يمكن أن يرقى إليها المؤمن يوماً...) [١].

شخصية الشيخ عبد الله هي الحبل السُّريّ، أو الساق التي توغل بالرواية جميعاً إلى هذه الآفاق الرحبة، والممتدة بين السماء والأرض، وبدونها ستفقد الرواية أهم مقوماتها الإبداعية والفكرية؛ بل تفقد حياتها، وتصبح خلقاً مهلهلاً ومشوهاً لن يخلّف في المتلقين غير النفور والاشمئزاز..؟

وإذا كانت هذه الشخصية الصوفية في رؤية الكيلاني الإبداعية قد بلغت حداً يكاد يصل بها إلى المثال الإسلامي لهذه الشخصية الإسلامية (العالم الصوفي)، فإن للكيلاني لا سيما في بداية تكوينه الأدبي وتذبذب رؤيته الإبداعية - رؤية مقلدة لهذه الشخصية (العالم الصوفي) في القرية، إذ المرحلة التي أبدعت فيها الرواية كانت مرحلة «تقليد الكتاب الكبار آنذاك ممن تربوا على موائد الإبداع الغربي[٢]، فكان الكيلاني مفتوناً برؤاهم آنذاك، فكانت شخصية «الشيخ الشاذلي» (العالم الصوفي) في قرية نجيب الكيلاني في رواية «رأس الشيطان» رجلاً بائساً، ويائساً من إصلاح حال القرية، فعندما مد أهل القرية أيديهم إليه كي ينقذهم مما هم فيه من ظلم وصلف الباشا «فتدافعوا

---

١ - ما بين الأقواس من كتاب محاولات جديدة في النقد الإسلامي ص: ٢٤٩، ٢٥٠ بتصرف للدكتور / عماد الدين خليل.

٢- راجع مقال «رأس الشيطان بين الفن والتاريخ» - مجلة الأمة - عدد (٤٤) شعبان: ١٤٠٤ نجيب الكيلاني.

نحو بيت الشيخ، ومدوا أيديهم كالغرقى إليه وذرفوا على يديه الدموع وهم يقبّلونها متزاحمين، وخشعت الأصوات فلا تكاد تسمع إلا همساً، وقال رائدهم:

- جئنا إليك بعد أن استشكل الأمر.

- إنهم ينوون أخذ أرضنا.

- يأخذون العَرَض الزائل، والدنيا الفانية..

- لكننا في حاجة إليها، إن أرض الباشا واسعة، ومن العدل أن تُشق فيها المصارف والترع والطرق.

فترنم في نبرات مبللة بالدموع:

- أتعرفون القصة الخالدة... (**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾**) [1].

فتململ الرجل في ضيق وقال:

- إنها كارثة. ونريدك أن تحادث الباشا في الأمر لعله يستجيب لك.

- أنا أريد وأنت تريد، والله فعال لما يريد، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وقلبي لم يعد يتعلق بشيء من الدنيا، وأنا لم أعرف سوى الله، ولم أحنِ رأسي لسواه.

- لكننا أبناؤك - ومشكلتنا تهمك، وأطفالنا.. أطفالنا.. وحنى الشيخ الشاذلي رأسه، وأفلتت منه دمعتان بللتا لحيته البيضاء وغمغم:

١- سورة ص الآية: ٢٣.

- أمركم.. سوف أرسل إليه خطاباً، والشكوى لغير الله مذلة ياأبنائي..[1]

فالشيخ هنا يائس، وعاجز عن عمل شيء لأهل القرية، وهو الذي يتربع على عرش قلوبهم جميعاً ويقدرونه فيما بينهم!!، إلا أنه لا يستطيع عمل شيء تجاه الظلم الواقع على أهل القرية من أبنائه ومريديه، فلم يكلف نفسه عناء مقابلة الباشا أو مواجهته..

وهذه صورة من الصور الباهتة «للعالم الصوفي» في روايات نجيب الكيلاني التي راعه تصويرها في فترة الإبداع [1] الواقعي من منظور الواقعية السوداء السائدة رؤيتها آنذاك..

فالصوفي بهذه الصورة انعزل عن الدنيا، ويريد أن ينعزل عنها الناس معه، ولا يطالبوا بحقوقهم، بل هو الاستسلام الذليل لقوى البطش والجبروت. والإسلام طالبنا بأن نقف في وجه الظالمين أياً كان موقعهم في السلطة.. فهذه الانهزامية تتعارض مع روح الذي استهان بالدنيا وبملذاتها، ولا يخاف الموت، فلم يوفق نجيب الكيلاني في رسم صورة الصوفي المسلم الحق كما صوره في الرواية السابقة.. لأن الصوفي ليس مطالباً بالعبادة فحسب، وإنما هو إلى جوار ذلك، يجب أن يكون منافحاً عن الحق وذائداً عن الظلم.

إلا أن الكيلاني خطا في إبداعه بعد ذلك خطوات واسعة نحو التصور الإسلامي لإبداع الشخصية الإسلامية، فبلغت شأواً يصل إلى

١- رأس الشيطان ص: ١٤٣، ١٤٤، نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م، بيروت.

٢ - حول هذه المراحل والتطور الإبداعي في مسيرته الفكرية والأدبية، مراجع «نجيب الكيلاني أديباً» رسالة ماجستير للباحث - فصل «التطور المرحلي لحياته الأدبية» ص٦٤ .

حد الكمال البشري (المثال الإسلامي) أو النموذج الإنساني الفريد، الذي يستمد أصوله من عقيدة الإسلام ويضرب بجذوره المديدة في أعماق حضارته وعطائه الإنساني العظيم.

ثانياً: شخصية موثق عقود الزواج (المأذون):

هذه الشخصية، ترتبط في الإسلام، بما تقوم به من مهام أقرها الإسلام (الدين الحنيف)، بحيث يوثق عقود الزواج، والطلاق، فيكون بوابة اللقاء التي ينفذ منها كل زوجين إلى الحلال في العلاقة الجنسية حسبما نظمها الإسلام، لذا اكتسبت هذه الشخصية جلالها من جلال وشرف ما تقوم به من مهام تنطلق من العقيدة الإسلامية، إذ إن المأذون يقوم بالعقد بين الزوجين إيذاناً للقائهما في الإطار الإسلامي المشروع، والذي حددته العقيدة الإسلامية لإشباع هذه الغريزة، وبقاء النوع الإنساني الذي يعمر الدنيا..

ومن ثم تصبح هذه الشخصية ذات خطر وحضور قائم في المجتمع الإسلامي، مما أغرى بعض الكُتَّاب لتقديمها في أعمالهم الإبداعية، ينطلق كل منهم في تصويره لمثل هذه الشخصية من رؤية أو تصور يختلف باختلاف اعتقاده (أيديولوجيته) الفكري فيطبعها بطابع فكري تابع أو نابع من ثقافته ورؤيته لهذه الشخصية، وما تمثلها من قيم أو رمز في المجتمع، والغالب على روائيينا- ولا سيما الشيوعيين - أن يصوروا هذه الشخصية في شكل «كاريكاتوري» ساذج كما نرى في الأفلام المصورة «المأذون» متشبثاً بجبته وعباءته ودفتره، ويتشدق ببعض العبارات المكرورة التي تزيد من السخرية منه في حذلقة منكرة

ومضحكة في الوقت نفسه، وكأنها شخصية جيء بها للضحك والسخرية فحسب، ولعل في سخريتهم من هذه الشخصية سخرية هؤلاء من الرموز الدينية.. والنموذج الإسلامي ليس بهذه الفجاجة المنكرة فصورة المأذون مستمدة من صورة القاضي الشرعي الذي يستمد شخصيته وهيبته من هيبة الشرع الذي يفتي أو يمثله أو يحكم به. فلا بد - إذن - أن تتوفر للمأذون له في القيام بهذا العمل جلاله وقداسته كجلال وقداسة المهمة التي يقوم بأدائها. إلا أن الكتّاب الروائيين لم يتحرروا من هذا التقليد الساخر أو العبثية الفجة في تصويرهم لهذه الشخصيات متأثرين بما كان يصنعه الروائيون في الغرب أعداء العقائد في رواياتهم المختلفة، فتسابقوا نحو هذه البدعة المستوردة، وكأن المهارة تكمن في تقليد هذه الصور الرديئة لهذه الشخصيات. وهذا ما نراه واضحاً في شخصية الشيخ عبد الودود في رواية «هارب من الأيام للأديب ثروت أباظة» [1]..

«الشيخ عبد الودود مأذون بلدة السلام، رجل طويل القامة عريض المنكبين، ليس بالسمين المفرط، ولا هو بالهزيل الذي تأخذه العين، جامد الوجه، إن رأيته خُيِّلَ إليك أن العاطفة لم تمر على وجهه في يوم من الأيام، يضحك إن ضحك بفمه يوسعه حسبما يقتضي سبب الضحك، فإن اضطره الأمر إلى القهقهة خرجت من حلقه، ولكنه أبداً لا يضحك من

١ - ولد محمد ثروت إبراهيم الدسوقي أباظة بالقاهرة في الثامن والعشرين من يونيه في عام ١٩٢٧م. نالت روايته هارب من الأيام جائزة الدولة التشجيعية، ونال هو وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى.. وأشرف على مجلة القصة حتى رأس تحريرها، ورئيساً لاتحاد الكتاب، ثم وكيلاً لمجلس الشورى عام ١٩٨٤م، ثم في عام ١٩٨٨ رئيساً لنادي القلم الدولي. من أشهر أعماله: هارب من الأيام - قصر على النيل - شيء من الخوف - لؤلؤ وأصداف - طارق من السماء - الغفران. راجع: تقديم الدكتور / عبد العزيز شرف لكتاب - ثروت أباظة - سلسلة الصفوة - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان - ١٩٩٢م. مصر.

قلبه، وإن حزن الشيخ عبد الودود فهو لا يحتاج إلى تعبير جديد يضفيه على سحنته، فهي عبوس لا تحتاج إلى علامات أخرى لتكون حزينة [١]».

يقدم الكاتب المبدع في هذه الفقرة «البعد الخارجي» للشخصية الإسلامية «المأذون» فيصفه وصفاً جسدياً، فهو متوسط البنيان، جامد الوجه، خال من العاطفة أبداً، عابس، لا تكاد تفرق بين حال السرور وحال الحزن في وجهه!!.

والكاتب ربما بحجة الواقعية (المحاكاة)، ينقل لنا صورة فوتوغرافية لما يمكن أن تكون عليه هيئة هذه الشخصية، لكن الفن لا يعرف الذاتية أو الخصوصية بهذا المستوى الضيق. فالفن عام وشامل عموم الحياة، فعندما يستقدم، أو يصور شخصية ما لا بد أن يقدمها في إطار من العمومية التي تستطيع تقديم النموذج الإنساني العام، الذي يجد فيه كل قارئ (شخصيته - وجوده) فكأن الكاتب يقصده هو على أي جزء من الوجوه.. لا سيما إذا كانت هذه الشخصية «رمز الدين» في العالم الروائي الذي ينسجه، فلا بد أن تكون على المستوى اللائق الذي يربأ بتصويره هذا عن دائرة الاتهام في عملية الإبداع..

ويوغل الكاتب في المغالطات الفكرية خلال عملية الإبداع، في تقديم هذه الشخصية بالشكل المضطرب والمتهرئ، عندما يصور البعد الداخلي للشخصية في مباشرة سمجة وتقريرية فجة..

«والشيخ عبد الودود رجل نقي السريرة، سريع إلى تصديق ما يسمعه، تسهل مخادعته، فإن ألقيت إليه مثلاً أن إنجلترا قد احتلت

١- هارب من الأيام، ص١٠٥ ثروت أباظة - مطبوعات مهرجان القراءة للجميع عام ١٩٩٤ -الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر.

لندن أسرع يقول لك: سبحان الله..! أهكذا..؟ ومتى كان هذا؟ فإذا أنت لم تبتسم وظللت تروي عليه كيف أن انجلترا خدعت لندن، وأوهمتها أنها تساعدها ثم احتلتها، ولم تقبل أن تتركها أبداً، راح يحوقل ويستعيذ بالله من الشيطان.. وهكذا تستطيع أن تصل به إلى تصديق أية خرافة تلقيها عليه، على شرط ألا تضحك وأنت تلقيها عليه، وهو يعلم في نفسه هذه الطيبة، ولذلك فهو حريص كل الحرص، إن أنت حاولت أو حاول غيرك أن يتحدث معه في أمر ينتهي به إلى أن يخرج بعض المال من حزامه، نعم حزامه وليست حافظته، إنك لا تحتاج إلى كثير ذكاء لتخدع الشيخ عبد الودود، فتروي عليه ما يشاء خيالك من خرافات فسيصدقها، ولكنك - مهما يكن ذكاؤك - لن تستطيع أن تنال من الشيخ عبد الودود قرشاً واحداً، وإن كان هذا القرش ذاهباً إلى أمر فيه خير الشيخ عبد الودود نفسه، فإن هذا الخير مهما يعظم أمره أقل شأناً وأهون خطراً من إخراج قرش كان قد استقر غير مُفَزَّع، وهدأ غير قلق من أموال الشيخ عبد الودود..)[1].

فالأديب هنا يعرض لصفات الشخصية النفسية، فالشيخ عبد الودود نقي السريرة.. يصدق ما يسمع دون تروٍّ.. تسهل مخادعته.. والأدهى أن يعلم هذه السذاجة في نفسه، وأي طيبة هذه التي لا تعني إلا السذاجة عينها!!..

وإذا كان الشيخ كذلك ساذجاً غراً تسهل مخادعته، إذن كيف يعقل أنه نشيط يقظ، يعي كل ما يلقى إليه وتصعب مخادعته إذا تعلق الأمر بقرش استقر غير مفزع في حزامه؟.

١- هارب من الأيام، ص١٠٦.

أليس هذا التناقض يدعو إلى الدهشة من الكاتب في موقفه من هذه الشخصية.. فهذه الصفات لا يقرها الإسلام في الشخصية، الإسلام الذي قال رسوله (صلى الله عليه وسلم) «المؤمن كيّس فطن»[١]، لا يرضى عن شخصية عبيطة، كزّة، كتلك التي رسمها الكاتب، شخصية مثيرة للضحك والهزء.. لا سيما إذا كان الشيخ غنياً يملك من الأفدنة عشرة يزرعها لحسابه الخاص، ذا موارد ضخمة تنكسب عليه من الحب والكره، والعجيب - من وجهة نظر الكاتب - أن هذه العواطف التي هي سبب ما يرفل فيه من نعمة لا تعرف سبيلاً إلى قلبه أبداً (فهو لا يعرف الحب إلا لغير المال، ولا يعرف الكره لغير إخراج هذا المال..» [٢].

وهذا الحرص القاتل على حب المال وجمعه أورثه شجاعة نادرة فهو (يخوض الليل الأسود والطريق المقفر بلا صديق ولا رفيق ولا حارس).. وقد بدأ هذه الشجاعة منذ عُيِّن مأذونا.. كل هذا في سبيل تحصيل المال، وبهذا الحرص الذي يصل به إلى حد العبادة للمال!!..

فالنموذج الإسلامي لهذا النمط من الناس لم يكن أبداً على هذه الشاكلة التي يصورها ثروت أباظة، وإن كان الواقع الماثل لا يعدم مثل هذه النماذج، إلا أن الواقعية أن يصور شخصية المأذون بصورة محترمة، لأنه يحظى في الواقع باحترام جميع الناس، أو يجعله مثالاً يحتذى به، نموذجاً أعلى مما عليه الواقع الماثل، وطامح إلى الواقع المأمول. لاسيما إذا كانت الشخصية ترمز إلى ذاتٍ قادرة على أن تتميز عن غيرها من

---

١ - أورده العجلوني في كشف الخفاء: ٢/٢٩٣، رقم ٢٦٨٣، وعزاه إلى الديلمي والقضاعي عن أنس، رفعه وهو ضعيف، وكذا أخرجه البخاري في تاريخه عن كعب بن عاصم.

٢ - هارب من الأيام، ص١٠٧.

الشخصيات الأخرى بخصوصيات عقدية واجتماعية، تحفظ لها هيبتها، وتضعها في إطار مضيء، حافز لكل إنسان أن يرقى، ليكون في نقطة الارتكاز من محيط الدائرة المضيئة بالمعطيات الإسلامية فكراً وسلوكاً.

فثروت أباظة أفرط في الجنوح بهذه الشخصية عن المسار، أو الإطار الإسلامي المرسوم لها.. حين ألصق به هذه النقائص، وقطعه من أسباب كثيرة تربطه بالإسلام في جوهره ومظهره، وفي الوقت نفسه لاندري وظيفة هذه الشخصية في الرواية، وإن كانت هذه الرواية كما يَدّعي مؤلفها: هاجمت ثورة يوليو ونظريتها الشيوعية التي اتخذتها منطلقاً لها.. هاجمت فسقها وفجورها.. هاجمت بُعدها عن الدين والأخلاق والشرف[1] فهل كان هذا الشيخ شيوعياً أو رجلاً من رجال الثورة، أو كانت وظيفته هذه بعيدة عن الدين حتى يصوره في هذه الصورة المادية البحتة إلى الحد الذي أصبح فيه عبداً للمال؟!!. وهل الدين في نظر ثروت أباظة يحفّز المسلمين من أتباعه على عبادة المال، والتحايل على جمعه من حلال أو حرام إلى حد السعار؟!!.

.. نعم، ذلك ما تراءى لي من التصوير الذي قدمه لهذه الشخصية، ولا يقتنع بهذا الحد من الانحراف الذي وصم الشخصية به، بل يتوغل ويغرينا ببعض المواقف الأخرى المخزية للشيخ تعقب في روايته شخصية (المأذون) مع أنها ليست الشخصية المحورية في القصة، وألصق بها كل

١- حوار ثروت أباظة، أجراه المحرر مصطفى علي محمود بمجلة «الكويت» التي تصدر في دولة الكويت عدد ١١٦، الصادر في ١٩٩٤/١/١م.

ما يشين، من خوف وشح وحرص على المال، ويظهر ذلك في الصورة التي شملت عملية الاستيلاء على ماله من اللص[١]..

فإذا كانت الرواية ترمز إلى عالم الثورة وعصابة اللصوص بقيادة «كمال الطبال» ترمز إلى قياداتها - إذا أحسنا الظن به - فإنه بالإمكان أن نقول: إن شخصية الشيخ عبد الودود المأذون جسّدت الظلم والقهر والمعاناة التي عاشها المجتمع، حتى المأذون الشخصية التي رمزت إلى الدين نالها ما نالها مما وقع على رأس المجتمع لا سيما المثقف آنذاك، لأن فلسفة الثورة لم تنطلق من رؤية دينية أو تصور عقدي، بل غالت في إيذاء التيار الإسلامي، أهانت رموزه بحجة معارضة الفكر الثوري، والرجعية في مواجهة الفكر الشيوعي المهيمن في ذلك الوقت..

وإذا كنا نسلّم لثروت أباظة بأنه نجح إلى حد ما في تجسيد الظلم والقهر والخوف، مما أثاره النظام الثوري آنئذ، بحجة تأميم الأموال والممتلكات خلال هذه الشخصية، إلا أنه فشل في تقديم شخصية إسلامية مقنعة، تربطها بالإسلام عُرى وثيقة تتمثل في مجموعة القيم والفضائل والمثل التي تنبع من الرؤية الإسلامية، وما ينبغي أن تكون عليه هذه الشخصية، إلا أن شخصية الشيخ عبد الودود انحرفت عن دائرة الضوء الإسلامي بمقدار (مئة وثمانين درجة) إن صح التعبير من النقيض إلى النقيض.

هذا فضلاً عن العيوب الفنية في عرض الشخصية من الإسراف في الوصف والمباشرة والتكلف في رسم ملامح الشخصية وثرائها وتخلفها

١- راجع هذه الحادثة في رواية (هارب من الأيام) ص١١٤ وما بعدها.

وتضاريس حياتها، وتحميل الشخصية ما لم تستطع أن تقوم به فتبدو غريبة عن المجتمع. لاسيما إذا كانت هذه الوظيفة - المأذونية - ذات خطر عظيم في المجتمع الإسلامي، حتى إن الدستور قصرها على ذوي مهارات خاصة لعل أقلها المؤهل العلمي، فأصبحت من الأهمية والشهرة مطمعاً لحاملي أرقى الشهادات العلمية في المجتمع.

فإذا كان الأديب يعالج تجاربه في إطار من العمومية، (نموذج عام)، وإذا كانت هذه التجارب نابعة من ذاته، تَعَيَّن أن يقدم نماذج عامة ومقنعة يتعاون فيها الشكل مع المضمون «فكل منها مؤثر في الآخر» بل امتداد له.. فلا بد أن يرى فيها كل إنسان نفسه عندما يطالعها فيتعاطف معها، أو ينفر منها إذا كانت شخصية عادية، أما إذا كانت شخصية دينية فهو يتطلع إلى رؤية صفات يحبها أن تكون في هذه الشخصية، وكما أراد الدين، فيحدث الانعكاس النفسي والروحي والسلوكي الذي يرجوه المتلقّي من الفن، وبهذا تتحقق للنموذج الإبداعي المصداقية التي ندعوها بالصدق الفني في الإبداع الأدبي..

ثالثاً: شخصية الإمام - الواعظ - الداعية:

هذه الشخصيات الثلاث تلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع المسلم، ومن ثم اتخذها الكتاب رموزاً للدين في كتاباتهم، فمنهم من تناول كل شخصية أو أي شخصية منهم في روايته، ومنهم من جمع هذه الشخصيات جميعاً في شخصية واحدة لرؤية يراها خلال عملية

الإبداع الفني لروايته، من هؤلاء، عبد الرحمن الشرقاوي[١] في روايته «الأرض» حيث جعل شخصية (الشيخ الشناوي) الذي يرمز إلى الدين في عالم الرواية.. الذي يطمح إلى (مناقشة الوضع العام في الريف في انزوائه غير الإنساني، وحصاره الطبقي، وفقره المادي والثقافي) [٢] إبَّان الثلاثينيات من هذا القرن... فيقدمه في وصف مباشر:

(الشيخ الشناوي هو فقيه القرية ومفتيها، وخطيب مسجدها ومأذونها الشرعي، ومعلم الأولاد فيها، وواعظ الكبار) [٣].

فالشرقاوي جعل من الشيخ الشناوي الشخصية التي ترمز إلى الدين الإسلامي في الرواية، شخصية جماعية - إن صح التعبير - فجعله فقيهاً، ومفتياً، وخطيباً للمسجد، ومأذوناً شرعياً، ومعلماً للأولاد، وواعظاً للكبار!!، وكأنه يجمع وظائف الإسلام كلها في شخص واحد، ليسهل الإجهاز عليها، فهو عندما يحطّ من قدر هذا الشخص، فكأنما حط بقدر هذه الوظائف جميعاً في حركة سهلة ميسورة.

من هذا المنطلق يرى الشرقاوي أن الشخصية الإسلامية ذات الارتباط بالدين، أو التي ترمز إليه، هي شخصية واحدة، وإن اختلفت

---

١ - عبد الرحمن الشرقاوي: ولد في العاشر من نوفمبر عام ١٩٢٠م في قرية البتانون مركز شبين الكوم محافظة المنوفية.

من أهم أعماله:

أ - روايات الأرض والفلاح، والشوارع الخلفية وغيرها...

ب - مسرحيات شعرية - مأساة جميلة، والحسين ثائراً، الحسين شهيداً، والفتى مهران.. وغيرها.

ج - مجموعة قصص «أحلام صغيرة».

د - الإسلاميات - محمد رسول الحرية، أئمة الفقه التسعة، وعلي إمام المتقين، وغيرها. راجع: عبد الرحمن الشرقاوي الفلاح الثائر - كمال محمد علي.. -الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م. مصر.

٢ - الواقعية في الرواية المصرية ص: ٣٣١.

٣ - الأرض، ص ٩، عبد الرحمن الشرقاوي - دار غريب للطباعة - د ت - القاهرة.

المسميات، فلا يغرنّك كون هذا فقيهاً، أو مفتياً، أو غير ذلك.. فهم جميعاً متشابهون، يعزفون لحناً واحداً، وينشدون هدفاً واحداً هو: تخدير البشر وإيهامهم بما ليس ماثلاً بين أيديهم!!.

«وهو رجل طويل عريض ضخم الجثة، غليظ القفا، عظيم الكرش يحب الموالد والطعام، وكنا نحسب نحن الصغار أنه يستطيع أن يضع في بطنه بقرة.. وهو رجل يحبه الجميع ويضحكون معه، ولا يكاد يوجد في القرية رجل لم يذق عصا سيدنا الشيخ الشناوي عندما كان يقرأ في الكتّاب..» [١].

فاختيار الشرقاوي مقصود منه، ليكشف في تبجح عن رؤيته لهذه الشخصية، فلم يجد إلا هذه الصورة الساخرة لعالم الدين، فإنه في نظره يمثل البله والغفلة والشراهة والبطنة، وإن كان قد أضفى عليه نوعاً من الحب. فأهل قريته يحبونه، فهل يحبونه لأنه أضحى أضحوكتهم بهذه السمات، بئس هذا الحب!!.

فهذه الصورة الكاريكاتورية الساخرة لسيدنا الشيخ الشناوي، يضعها في إطار متهرئ متهالك، فهو شخصية متبطلة، عالة على المجتمع، لا تقدس العمل، ولا تسعى في طلبه ما دام يجد قوته وطعامه الوفير في الموالد، التي يحتفي بإقامتها أهل الريف، لذا يراها كافرة بمبادئ الشيوعية، ما دامت لا تعبد العمل، ولا تحتفي بالعاملين. فالصراع في رواية «الأرض» طبقي اجتماعي. وأن هؤلاء الشيوخ طالما لا يمسكون

---

١ - الأرض، ص ٩.

بالفؤوس، ولا يفجرون باطن الأرض، فإنهم متبطّلون عاجزون عالة على المجتمع، لا يستحقون الحياة في فردوس الشيوعية الأعلى!!..

والإسلام يُعلي من قيمة العمل، ويُلين جانبه للعاملين، يتجلى هذا واضحاً لكل ذي عين باصرة في نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية، لا كما يتصوره الشرقاوي ومن يجري في ركابه من الذين زيّن لهم الشيطان سوء عملهم فرأوه حسناً، رأوا الشيخ الشناوي: «يصنع أيِّ شيء في القرية ويروي له حديثاً أو قصة ليبرر ما صنع» [١].

وكأن الشخصية الإسلامية لا يعنيها من عقائدها إلا ما يبرر صنائعها، وكأن الشيخ عديم الرؤية أو المبادئ ما دامت هناك مبررات لما يصنع من دينه أو معتقداته، ولا سيما أنه يصمه بالتقول على الرسول (ﷺ)، وينسى الشرقاوي أن الفقيه يحفظ قول الرسول (ﷺ): من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) [٢]. وقد اعترف الشرقاوي بأن الشيخ الشناوي فقيه، إذن: هو حافظ لهذا الحديث. ولا يمكن أن يجرؤ فقيه على اختراع حديث ونسبته إلى رسول الله (ﷺ) لأنه يخشى النار التي توعّده بها الرسول (ﷺ).

كل هذا وغيره كثير، فعندما يغضب الشيخ، وينهر الراوية عندما كان هو ووصيفة والداية الصغيرة، عندما وجدهم يهمون بفعل الفاحشة في المصلى- لاحظ رمزية المكان!. - فيما أسماه بـ «لعبة العريس والعروسة»

١- الأرض، ص ١٠.

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي - المقدمة - باب تغليظ الكذب على الرسول (ﷺ) المجلد الأول ص: ٥٥ رقم (٤).

لاسيما، وقد تهيأت العروس (وهي في سن الزواج)، والعريس (وهو طالب في السنة الثالثة بكلية الحقوق)، لإتمام هذه اللعبة، فيغضب الشيخ غضباً أذهله عن نفسه:

« وكمان قدامي؟.. ترقدوا على بعض قدامي يا كفرة يا فجرة؟ غوروا من هنا... غوروا ...» [١].

فيتحير الراوية من فعل الشيخ وزمجرته في غير ما جريمة وقعت!!، ويدهش لهذه الرعونة من الشيخ، التي أفسدت عليهم سعادتهم: «وفي الحقيقة لم نفهم سر ما يغضب علينا الشيخ الشناوي، لقد كنا سعداء للغاية ونحن نلعب.. كنت أنا ووصيفة والداية الصغيرة نضحك طول الوقت في المصلى، والصغار يغنون وراء السور المنخفض فرحين، ولم نشعر أبداً أننا نرتكب شيئاً يستحق هذا كله، وبصفة خاصة، يستحق النار) [٢] التي توعدهم بها الشيخ!!..

فإيمان الكاتب بشيوعية الجسد، واستهانته بالقيم والأعراف الدينية، بررت له هذه الفعلة الشنعاء، وجعلته يندهش لغضب الشيخ، فهذه الأفكار الوافدة والحرية الزائفة المزعومة التي آمن بها الكاتب جعلته يعجب من غضبة الشيخ لهذا الفعل الفاضح، فكأنهم يأتون بشيء لا يخرج على الأعراف والدين، لأن المجتمع حتى غير المتدين، لا يرضى بمثل هذه الأفعال، وإني لأعجب فوق عجبه،بأنه اختار لهذا الفعل الفاضح (المصلى)!!، أما كان من الممكن مزاولة هذا الفعل في الحقل، أو

١- الرواية، ص ١١.

٢ - الرواية، ص ١٣.

في بيت خرب، أو حتى في الطريق العام بعيداً عن المسجد؟!، ولكن الذي دفعه إلى ذلك احتقاره للدين ورموزه واشمئزازه من أماكن العبادة، فأراد أن يدنّسها، ويعلن في ذات الوقت أنه لا يقدسها ولا يحترمها.

وهاك موقفاً آخر يحاول الكاتب خلاله أن يؤكد مطاعنه، ويُمَكِّن لرؤيته التي يطمح خلالها إلى إقناع المتلقي، والتي تنهض من كون هؤلاء الشيوخ الذين يضج بهم الريف ويرمزون إلى الدين، فماهم إلا أمثلة حية للبلادة، واهتزاز الشخصية وضعفها، ليس باستطاعتهم الإذعان للحق، أو اتخاذ موقف تجاه المشكلات التي تواجههم، أو تواجه المجتمع المعاش، وأنهم عبيد الساسة والطغاة، ولو كانوا ظالمين، فهم يمالئونهم في ظلمهم، ويلهثون وراءهم، ويهشون لمقدمهم ولو كانوا يكرهونهم.. فعندما أخبر العمدة «الشيخ الشناوي» بأن «محمود بك» أعطاه عريضة يطلب أخذ توقيعات أهل الأرض (القرية) عليها، لتعديل نظام الري بما يتناسب مع مصلحة فلاحي القرية، وافقه على خطته هذه ووقّع على العريضة، وأمر الفلاحين في القرية أن يوقعوا عليها، إذا كانوا يحبون الله ورسوله، دون أن يدري أنه يغرر بهم من حيث لا يعلمون، فإن العريضة كانت لأجل شق طريق زراعي في أرض هؤلاء التعساء، ليصل إلى سراى البيه «محمود بك» وهم لا يعلمون، وكذلك الشيخ، إلا أنه دفعهم إلى ذلك دفعاً:

« ووقع الشيخ الشناوي على ورقة بيضاء دون أن يسأل.. ووقع وراءه بعض الذين يعرفون القراءة وأخذ الفلاحون يضعون الأختام تحت إمضاء الشيخ الشناوي.. والشيخ الشناوي يستعجلهم، ويشتم من طلب

قراءة العريضة.. وقام من عند العمدة وانطلق في القرية بجسده المليء المكرش وسبحته يهمهم بالدعوات ويزعق في كل من يقابله أن يسرع بختمه إلى دوار العمدة للتوقيع على العريضة الجديدة..» [١].

« وكان الشيخ الشناوي يطوف بنشاط، ويطالب الناس أن يذهبوا بأختامهم إلى الدوار..» [٢].

« وظل سيدنا (الشيخ الشناوي) واقفاً في الطريق يهز عصاه على الرؤوس، ويلتقط أي رجل ذاهب إلى الحقل أو عائد منه، ويأمره بالذهاب إلى الدوار.. ويأمر بعض الرجال بإحضار أختام النساء اللواتي يملكن أرضاً..».

- اللي يحب الله ورسوله يروح بختمه عالدوار، يللا يا كفرة!...» [٣].

فالكاتب هنا يغالي في افتئاته على هذه الشخصية التي ترمز إلى الدين، لا سيما وهو الفقيه والمفتي والمعلم والواعظ (الناصح)، فكيف به لا يفطن لمثل هذه المؤامرات، ألاعيب العمدة والبيه محمود بك؟.. وكيف يوقع على ورقة بيضاء لم يكتب فيها شيء؟! أظن أن ذلك لا يقنع عقلياً، ولن يقع واقعياً!!..

فالشرقاوي يهدف من وراء ذلك إلى الطعن والتشكيك في أهمية الدين ورموزه في المجتمع، بل إنه قد يكون مغرراً ومعطلاً لانطلاقه وتطوره، (فالشيخ الشناوي الذي يعيش بين الفلاحين، لا يملك إلا

---

١ - الرواية ص ١٠٢.
٢- الرواية ص ١٠٩.
٣- الرواية ص ١١٠.

استخدام وعظه الديني، لتخفيف غضب الفلاحين على الباشا أو العمدة، أو يعمل كمخلب قط للعمدة والباشا يساعدهما على تنفيذ ما يريدان، حتى دون أن يعرف إذا كان يريد بالقرية شراً أم خيراً) [١].

ومن الشخصيات الأخرى في رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي التي يصر على الاستهانة بهم ممن يمتّ إلى الإسلام بصلة فنرى من الكاتب إصراراً وحرصاً على تشويههم مثل الشيخ «يوسف الأزهري» الذي مكث في الأزهر عدة سنوات، ولم يتمكن من نيل أية شهادة منه، وقام بافتتاح دكان للبقالة بالقرية، لكنه لم يزل ينغمس في فشله، فلم يجن شيئاً في حياته يشهد له بالشرف أو الشهامة المعهودة في أمثاله. فعندما يُسْجَن رجال القرية في سجن المركز، تستجير به الأطفال والنسوة، كي يذهب إلى الرجال في المركز، يخاف أن يقبض عليه إن ذهب إلى هناك، «كان حزبنا يشعر بالوحدة والضعف، والفراغ وقليل من الضياع.. وكان مهزوماً..» [٢].

كما استغل غياب أهل القرية، وراح ينقض على الأذرة [٣] المسروقة من حقولهم غير مبال بحلال أو حرام، وعندما لفت الشيخ الشناوي نظره إلى أن هذا لا يليق برجل مثله يعرف الحلال من الحرام قائلاً:

- يا راجل.. حرام عليك يا راجل، يا راجل شرفك أحسن من الحاجات دي!

فقال الشيخ يوسف بإهمال دون أن يرفع رأسه:

١- الروائي والأرض بتصرف، ص ١٤٤.
٢- الرواية، ص ٢١٦.
٣ - الأذرة: الذُّرة.

- دهدى.. مابلا وجع دماغ بقى يا سيدنا.. ما تتشطر كده على العمدة، فلقتونا يا أخي.. وحياة النبي دا أنت تأكلها والعة [١].

فالشيخ هنا، غير مبال بأحكام الدين الذي يمثله ويتمسح فيه، بل يرى أن تشبثه بالدين وجع دماغ! لا يصح أن يشغل نفسه به، ويمالئ اللص على سرقته غير مبال بعقوبة السرقة في الدنيا، وعقابها في الآخرة، فهو إنسان وصولي لا يهمه من الأمر، إلا ما يدخل في جيبه من وراء هذه الصفقة.. فالكاتب يحاول أن يجرفه إلى العالم المادي الذي يؤمن به، وينتصر له على حساب أشياء كثيرة تدخل في إطار الدين بروحانيته ومعانيه السامية.. وليت الأمر وقف عند هذا، بل يجعل الشيخ يوسف - والذي لا يفتأ يذكرنا بأنه معلم للشيخ الشناوي، وأنه أقرأه في الكُتَّاب قبل أن يقرأ في الأزهر، وأنه من أهل الفضل، وأن من كانوا معه أصبحوا الآن في مكانة فريدة من المجتمع، فمنهم القاضي، وناظر المدرسة - يجعله يُحَرِّض علواني على سرقة مخازن العمدة، ليسرق منها الذرة أو القمح، ويغريه بأنه سيشتري منه بسعر عالٍ هذه المرة، بعد أن قَدَّم له رشوة كعربون لهذه الصفقة تتمثل في علبة سجاير ماكنة كبيرة وكمية شاي وبعض قطع السكر، «في اليوم التالي كان الشيخ يوسف أسعد إنسان في القرية فقد حمل إليه علواني كيسين كاملين من أذرة العمدة وكيساً من القمح، ولما رأى الكمية أمامه كبيرة حاسب علواني عليها كاملة كما هي وتحلل من وعده بأن يحسب الكوز كوزين وكيلة القمح كيلتين.. واكتفى بأن يعطيه حقه كاملاً هذه المرة..) [٢].

١- الرواية، ص ٢٣٢.

٢- الرواية، ص ٢٥٦.

فالكاتب يصر أن يشوه الشخصية ويمرغها في الوحل، فإذا شك الناس في تلقيه السرقات، فهو بعينه يحرض على السرقة من مال العمدة، وكأن الشيخ يفتي بجواز سرقة مال الحكومة، فإنه يورط الشخصية الإسلامية، ويدفعها إلى الشر دفعاً، غير مبال بأنها تفقه أو تعرف حدود ما تقع فيه من خطايا، وكأن ما يعنيها هو الحصول على المال ومن أي طريق لا يهم، وليست هذه سمة المسلم من العوام، فما بالنا عندما يكون مسلماً تعلم في الأزهر، وحفظ من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ما يأمره به الدين وينهاه كذلك عنه..

وعندما تمر الزراعية ويقف أهل القرية من رجالها (عمَّال الحَفْر) موقفاً معادياً، ويقسم الشيخ يوسف بأنه معهم يرفض الزراعية، ولا يمكنه أن يبيع عمالها شيئاً، أو حتى يكلمهم. إلا أنه سرعان ما تراجع وانهزم أمام القروش التي يتكسبها من وراء هؤلاء الرجال:

(أنت يا شيخ يوسف مش قلت من قيمة جمعة إنك مش رايح تكلم حد من بتوع الزراعية.. حتى كنت ماتردش السلام، إيه اللي خلاك تبيع لهم دلوقت؟).

فقال الشيخ يوسف متزايلاً ببرود:

- دهدى! أي قلت! قلت ورجعت.. حد شريكي؟ وأنا إن ما بعتش ماغيري في بلاد تانية رايحين يبيعوا لهم..)[1].

فالشيخ هنا والذي يرجى منه مشاركة أهل القرية في مصابهم، وألا يخرج عليهم فيما يرونه، ليكونوا يداً واحدة على من يعاديهم، فإذا هو

١- الرواية، ص ٣٨٢ .

يخالفهم في أمرهم، ويتخلى عن مواساتهم، وهو الذي يفترض فيه أن يكون ملاذهم وسندهم في مثل هذه المواقف.

فالشرقاوي جَرَّد هذه الشخصية من كل قيمة أو فضيلة يمكن أن تتشبث بها، حتى أضحى هُزْأَة البلدة، وافتقد مكانته حتى مع صغار شباب القرية. فلم يجدوا حرجاً في إهانته:

(- كلام إيه دا يا راجل، إنت بتهبل، بتقول إيه؟! مصلحتنا إيه يا راجل يا عديم المروءة يا قليل الطهي!.. إنت اللي عمرك ما فكرت إلا في روحك.. اسمع إما أقول لك.. التخبيط الفاضي بتاعك ده لازم تبطله أحسن والله والله والله العظيم تلاتة وعزة الله يا شيخ.. قسماً بالذات العلية ما عندي لك من هنا وجاي غير البُلْغَة.. هه!!) [1].

فالشرقاوي يسرف في تشويه الشخصية الإسلامية، والتي تتصل بالإسلام سواء من قريب أو بعيد.

والكاتب عندما بنى فكرة رواية «الأرض» اتخذ منها مصدراً للقوة والحياة والامتداد. فتبرز ملكية الأرض «كقيمة ثابتة في الرواية، فهي التي تحدد أقدار الناس في مجتمع القرية، ودرجة تأثيرهم، فالأرض هي القوة، وهي الشرف، قوة مادية ورمزية في الوقت نفسه، لذا يفرض الضياع والسقوط على من لايملكون، فلا كبرياء لهم ولاكرامة، فهم مُذلّون، ومهانون ومسحوقون، ويمثل هذا النمط «الشيخ الشناوي» و«خضرة».. أما الملاك فهم من ذوي الشرف والمكانة العالية في القرية،

---

١ - الرواية، ص ٤١١.

حتى لو كانت ملكيتهم لا تتعدى قراريط معدودة، ويرمز لذلك عبد الهادي ومحمد أفندي ومحمد أبو سويلم[١]..

ومن ثم فالأرض في هذه الرواية (تمثل العامل الحاسم في تحديد مواقف ومصير من يملكون، وتبدو عاملاً وإيجابياً حين يتخذها المؤلف أساساً لتحديد سلوك الشخصية وهويتها، وعاملاً - كذلك - سلبياً حين يفرضها المؤلف بقسوة وصرامة على الشخصيات، فإنها بالنسبة لمن لا يملكون تقوم بنفس الدور، بصورة أشد وضوحاً وحسماً...» [٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فالشيخ الشناوي لا يمثل قيمة تذكر في الرواية، فقد سلبه المؤلف ملكية الأرض، ومن ثم سلبه الفاعلية في مجتمع القرية، فهو بلا أرض، وبلا جذور، ويكاد المؤلف أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأن حياته أقل شرفاً بكثير من حياة خضرة... عاشت خضرة مع الفلاحين ملتصقة بهم.. أما الشيخ الشناوي، فأصبح ذيلاً للعمدة والسلطة، يقف معهم ويمالئهم ضد قريته، لأنه بلا أرض، ولذلك فهو في حقيقته بلا شرف. خضرة تبيع جسدها مقابل كسرة خبز، أما هو فيبيع علمه ودينه من أجل حياة أقل خشونة، ولا يمل المؤلف من ترديد أن سر مأساته يرجع إلى كونه بلا أرض[٣].

فكأنه أتى بهذه الشخصية خصيصاً، لكي يسخر منها ويجرحها، ويفقدها كل الصفات النبيلة، لا لشيء إلا لأنها ترتبط بالدين بسبب:

١- الريف في الرواية العربية، ص ١١٥ د: محمد حسن عبد الله - عالم المعرفة

٢- الروائي والأرض، ص ١٥٤..

٣- الروائي والأرض، ص ١٥٨ بتصرف.

« همس عبد الهادي ذات ليلة قبل النوم بأن الشيخ الشناوي لو كان يملك أرضاً في القرية لما قال هذا الكلام».

« لو أن للشيخ أرضاً يختلط عرقه بترابها.. ولو أنه رآها تتشقق من الجفاف تحت عينيه بعد أن شقي فيها.. ورأى أذرته الصغيرة الغضة تذوي كأطفال يموتون.. لو عرف الشيخ الشناوي كل هذا يسكت؟!..».

« لو كان سيدنا يملك قيراطاً واحداً على الأقل.. ولو أنه عمل في الفأس، وانحنى عليه وحفر له القنوات.. لما اعتقد أن أمر الله هو الذي حرم القرية من الماء لينعم به الباشا، ولروى أحاديث أخرى.. ولآمن أن الحكومة، لا الله، هي التي تحرم أرض الفلاحين من الماء وتميت أعواد الذرة الغضة».

«إن سيدنا هو الآخر كخضرة: لديه شيء يبيعه للذين يملكون الماء والجاه والكلمة ولا يعنيه إلا أن يبيع الشيء الذي يملكه.. ولْتهلك بعد هذا أرض القرية..».

«إن الذين يملكون أرضاً في القرية يضعون أيديهم في النار.. أما سيدنا فهو كخضرة يده في الماء.. ولهذا فهو يقول كما يشاء ولو كان له أرض لالتهى!..» [1].

فعبد الهادي «الفلاح البسيط» لا يؤمن بقيمة الشيخ الشناوي في القرية، ويصرح دون مواربة بأن حديثه لا يخرج عن كونه هذياناً وهرطقة لا تغني ولا تسمن من جوع، ولو كانت له أرض لالتهى بها عن

١- الرواية، ص ٨٢.

نصائحه، وخطبه التي أورثتهم صداعاً كاد يفلقهم!!.. لذا نرى «عبد الهادي» يتصدى للشيخ وهما جالسان ذات مساء على مصطبة محمد أبو سويلم ومعهما محمد أفندي وذلك حين يكرر حديث اللعنة والصلاة والزكاة.. فقد صاح فيه قائلاً:

- دهده يا سيدنا؟ ما بلا وجع دماغ بقى فلقتنا من الكلام ده، هو ربنا كان هو اللي حاش الميه عنا وإلا المهندز والحكومه هم اللي حاشوها، طب ماهي بتجري في أرض الباشا زي الحلاوة اطلع كده لحد المركز وشوف أرض الباشا؟ أهي بتروى بالراحة من غير ما يدور ساقية ولا يشقى بهيمة ولا يشغل وابور الميّه؟. هو ربنا مش فاضي إلا لأذية بلدنا؟.اسكت بقى يا سيدنا! قطعت سبحنا بالكلام بتاعك ده اللي لا بيودي ولا بيجيب! حاكم إنت بتمرح في قته محلولة زي بغل الوسية، لامال ولا هبة! باكي على إيه كده؟.» [1].

فهذا الرفض الأيديولوجي أو المذهبي للشخصية الإسلامية على لسان عبد الهادي نابع من المذهبية الفكرية التي يدين بها المؤلف، للدرجة التي أصبح فيها الشيخ الشناوي نمطاً لخواء الشخصية وانغلاق الفكر على ما سمعه وحفظه من خطب قديمة بالية (لا بتودي ولا بتجيب!! مواعظ عفا عليها الزمن، ومملأة ممقوتة لذوي النفوذ في القرية كالعمدة أو أحد كبار الملاك في كسب عطاياهم، دون مراعاة لمصلحة أهل القرية الفقراء، غير آبهٍ بمعاناتهم، بل نصائحه ساهمت في زيادة همومهم ومتاعبهم، وليته فعل مثلما فعل «عم كساب» سائق

١ - الرواية، ص ٩٣: ٩٤.

العربة الحنطور في رواية «الأرض» الذي وقف من قضية الفلاحين في القرية موقفاً إيجابياً. فقد كان يحس بآلامهم، ويضيق بسماعه لأخبار حبسهم في سجن المركز، أو دوار العمدة، فقد كان «عم كساب» أحد أبناء القرية الذين قذفتهم الحياة في مسارات متعددة، فاشتغل سائقاً لعربات الحنطور، وخفيراً بالدريسة، وعاملاً في العنابر، وعاملاً في النسيج، وعندما قامت ثورة ١٩١٩م اشترك فيها وهو عامل بالاسكندرية، وبعد الثورة اشترك في إضرابات العُمَّال، وسجن من أجل الإضراب، وذاق المر، وفي السجن لقي عُمَّالاً يفهمون ما لم يكن يفهمه، ومنهم تعلم الكثير من الأسرار، وخرج من السجن، فعاد يبحث عن العمل، لكن الأبواب أغلقت في وجهه، فراح يسوق العربة الحنطور في القرية، إذن لم يعد موقفه مثل موقف الشيخ من قضايا القرية وهمومها وآلامها، فتعدى التأييد المعنوي، والمساندة الشعورية إلى المشاركة الفاعلة في مشكلات القرية..» [١]

فهو يحتفي كثيراً بكفاح الفقراء بل وتحريضهم على الثورة، وهذه هي أهداف الشيوعية.. التي تنبع أفكاره من آبارها الآسنة..

.. وكما يجمع الشرقاوي بين الشيخ الشناوي وخضرة في صعيد واحد لكونهما، لدى كل منهما ما يبيعه، وكونهما عراة من ملكية الأرض.. فهما عراة بالتالي من الشرف في الحياة، يصر الكاتب أن يقرن بينهما في الممات، فعندما ماتت خضرة، تساءل الشيخ الشناوي عن المكان الذي تدفن فيه خضرة، فأجابه عبد الهادي، بأنها تدفن في مقابر الشيخ الشناوي لأنه أقرب الناس لها...» [٢].

---

١ - راجع الرواية، ص ٣٧٤، ٣٧٥، ٤١٣.

٢- الرواية، ص ١٠٧.

فشخصية «الشيخ الشناوي» وإن كانت جسدت الظلم الذي وقع على الفلاحين في صراعهم مع طبقة الباشوات الذين تساندهم الحكومة المتمثلة في العمدة، ومأمور المركز، إلا أنها قست إلى حد بعيد على الدين واستهانت برموزه ومبادئه بحجة الواقعية، ولا ندري ما واقعيته؟ لا سيما، إذا كان الفن ليس تسجيلاً آلياً للطبيعة، أو محاكاة حرفية لظواهرها، وإنما هو انتقاء واختيار، ومحاكاة لجوهر ما فيها بقصد إغنائها وإكمالها، والواقعية هي الواقعية النفسية والفكرية بأن يكون إدراك الشخصية وتفكيرها متناسباً مع مستواها الاجتماعي والثقافي بحيث لا تنطق العامة - مثلاً - بأفكار الفلاسفة والمثقفين، وأما الواقعية اللغوية فليست مقصودة، إنها واقعية حال وليست واقعية مقال.هذا بالإضافة إلى أن استخدام العامية يخرج بالحوار الدرامي إلى السطحية والثرثرة التافهة، بينما تستطيع الفصحى وحدها، وهي لغة الأديب الكاتب، أن تعبر في عمق ونفاذ عن لسان حال الشخصيات في حوار أدبي متين.. فاستخدام العامية في الحوار الأدبي يؤدي إلى تعميق الهوة بين المتلقين وتراثهم، وتؤدي إلى الازدواجية اللغوية، ويحول دون بلوغ الوحدة المنشودة في أساس من أهم أسسها، وهو اللغة، كما أنه يحول دون اكتمال المُتْعَة الفنية التي ننشدها في العمل الأدبي نفسه..) [1].

والذين يتشبثون بالعامية يظنون أن الفصحى عاجزة عن التعبير عن المواقف، وخلجات النفوس، ونحن نرى أن ذلك يرجع إلى إفلاسهم،

---

١ - اتجاهات الرواية المصرية، ص٢١٠، بتصرف، دكتور شفيع السيد.

وعدم قدرتهم على تطوير الفصحى الفنية، القادرة على التعبير بكل ما يريدون.

كما أن الواقعية الإسلامية التي ننشدها.. «تُعدّ الرباط السليم المتوازن، الذي يجمع بين الأرض والسماء، بين الطبيعة المحسوسة والطبيعة غير المحسوسة، من ثم تتجاوز البصر إلى البصيرة، فترى بعينها الثاقبة المتزودة بنور الله ما لايمكن للعلم بأرقامه وقوانينه الأرضية أن يراه» [١]، من ثم تقفز الواقعية الإسلامية، وتتجاوز هذا الواقع الأرضي الذي يمثل أو يشغل حيزاً صغيراً من الأفق الفسيح، إلى الحقيقة العليا التي تتعاضد مع بعض المقومات الإنسانية في التصور الإسلامي (الغيب)، لتكون الواقع الإنساني للحياة والكون والإنسان نفسه، من ثم يتضح موقف الإسلام من الواقع في القصة أو الرواية، (فليس في الواقع البشري المفروض من قِبَل «صفوة ممتازة» أو «طبقة كادحة»، أو الواقع المادي المحسوس القصير النظر، وإنما هو الواقع الأرضي الذي لا ينفصل عن الواقع السماوي بحقيقته العليا، وروحانيته وإعجازه وقَدَره، إنه الواقع الإسلامي الشامل لكل عناصر الواقع القائم واحتمالاته غير المنظورة أو المدركة..) [٢].

فرواية الأرض وإن كانت تطمح إلى مناقشة الوضع العام لهذا الفريق في انزوائه غير الإنساني وحصاره الطبقي، وفقره المادي والثقافي.. إلا أنها تكشف عن موقف أيديولوجي خاص يرفض الدين ويستهين به، إلا

١- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، ص١٧، د/ أحمد بسام ساعي - دار المنارة - طبعة أولى - ١٩٨٥ - جدة (السعودية).

٢ - الواقعية الإسلامية، ص ٣٣.

أن هذه الاستهانة لا تصل في القرية إلى الموقف من الدين كعقيدة أو عبادات، فليس صحيحاً بالقياس إلى أسس بناء الشخصية الريفية مهما كانت متمردة، أو شديدة الثقة في العلم، مؤمنة بالعلاقة الحتمية بين السبب والنتيجة، أن تقول «قُوم يا خويا قُوم.. اخبط لك ركعتين، يمكن تلاقي شغلة، يمكن ربنا يطلع القطن بدري ويجرِّي منه الدودة، خلينا نهيص) [١].

إن الفلاح لا يتكلم وفق هذا التصور، وهو يعرف أن صلاته لا تقاوم الآفات، ولا تعجل بنضوج الزرع، وأنها حق الله سبحانه وتعالى، قد يهمله، ولكنه لا يجاهر بالاستهانة به أو ينكره، بل إنه عندما يُصاب الريفي في ماله أو زراعته فإنه يُصبِّر نَفسه بقوله: «المؤمن مصاب» فإنه يدرك أن ذلك علامة قبوله عند الله وصدق إيمانه به.. إن الكاتب هنا (يفرض تصوره الذاتي المسبق، ساقته رغبته في تعميق مجرى الواقعية في روايته إلى الإغراق في محاكاة متخيلة أو محتملة لشخصيات مفلتة عن جسم القرية يمكن أن تكون، ولكنها لا تأخذ المكان المؤثر الذي وضعها الشرقاوي فيه) [٢].

فالشيخ هنا سلبي ممالئ للحكومة الفاسدة بكل قواها ضد الفلاحين الفقراء.. غائب عن وعي الواقع المعيش في القرية، فلم نره على امتداد الرواية وهو الواعظ الناصح لهم، يخطب فيهم خطبة واحدة، ينبههم فيها بالخطر الذي يحيط بهم، أو يهاجم الظلم القائم

١- الرواية، ص ٦٨.

٢- الريف في الرواية العربية، ص ١١٥ - ١١٦.

في القرية الذي يفح سمومه في كل مكان وفي كل اتجاه.. وهذا ما يتعارض مع وظيفته الدينية التي يُعْنَى بها في إقامة المجتمعات على خلاف ما قام به الخطيب (واعظ) جلال الدين الطالب الأزهري في قرية نجيب الكيلاني[1] في روايته «حمامة سلام» فإنه مشغول بهموم القرية وما تنوء به من مشكلات من طغيان الأغنياء وظلمهم الذي يكاد يملأ الأرض حتى وقع العالم في حرب طاحنة لا يعلم مداها إلا الله.. حرب على رأسها هتلر الذي أصبح اسمه يتردد على الألسن أكثر مما يتردد اسم الله، ويتحدث عن الآفات التي أصابت القطن وعن أصحاب الأرض (المُلاَّك) الذين يأبون أن يتهاونوا قيد شعرة فيما قرروه من إيجارات، مما اعتبره طاغية القرية (الحاج عبد الودود) سباً علنياً له مما جعله يصرخ فيه وينهره، لينزله من فوق المنبر يوم الجمعة لكن موقف (جلال الدين) كان صامداً حتى النهاية في وجه الإعصار العاتي..

- انزل يا ولد..

وساد المسجد صمت رهيب، وهدر الشاب: ما كنت أهبط من مكانة أجلسنيها الله.

- لا داعي للفلسفة.. انزل..

---

١ - ولد نجيب الكيلاني في الأول من شهر يونيه عام واحد وثلاثين وتسعمئة وألف في قرية «شرشابة» إحدى أعمال مركز زفتي التابع لمحافظة الغربية (طنطا).

فاق إبداعه الأدبي ونتاجه الفكري في إطار التصور الإسلامي ما يربو الثمانين مؤلفاً في الرواية والشعر والقصة القصيرة والمسرح والدراسات الأدبية والنقدية والإسلامية، وأصدر أول سلسلة في إبداع الأدب العربي التي تناولت مشكلات المسلمين في العالم تحت شعار «روايات إسلامية معاصرة» : منها:

١- نور الله ٢- عذراء جاكرتا - ٣- عمالقة الشمال - ٤- ليالي تركستان - ٥- عمر يظهر في القدس - ٦- دم لفطير صهيون- وغيرها.

- هذا بيت الله لا بيتك، وحق هؤلاء المسلمين أكثر من حقك..

دقّ الحاج بيده المتشنجة على خشب المنبر: انزل يا ابن الكلب.. أنت تسب أسيادك..

وعاد الشاب يقول في ثورة: الدين النصيحة، وما قلت إلا ما أعتقد أنه حق.

- لعب عيال.. أنت تجني على نفسك وعلى أهلك فصاح الطالب: سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل أتى إماماً ظالماً فنهاه، فقتله..» [1].

فالواعظ هنا لا يقف مكتوف الأيدي أو ذاهلاً عما يقع لمجتمعه وأهل قريته من مشكلات مصدرها الطغاة في القرية ومن يساندهم من حكامهم (العمدة - مأمور المركز) فهو يواجه الجميع بهذه الأمراض الفاتكة بمجتمع القرية والتي تقف به دون نقطة الانطلاق والتطور.. وهذا طالب لم يستكمل أدواته العلمية والفقهية بعد، ولكنه متشبث بما ينبغي أن يكون عليه الواعظ، فكان في وجدان الكيلاني أفضل من الواعظ الذي قدمه عبد الرحمن الشرقاوي في رواية الأرض.

وكانت هذه الخطبة أحد المسامير التي دُقّت في نعش الطغيان في القرية مما شجع الفلاحين أنفسهم على الرفض والتمرد، وقيام الشيخ عبد الباقي الصوفي بمواجهة الطاغية وتوسط أهل الخير..تَكَاتُف الجميع أدى إلى النتيجة الحتمية لانتهاء الظلم، وعاش الجميع في حياة

١- حمامة سلام، ص٢٠ نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة - ثالثة - ١٩٨٤ - بيروت.

هانئة سعيدة، فكانت خطبة الشيخ (جلال الدين) هي شرارة الانطلاق نحو العدل والحرية والإخاء في مجتمع القرية..

وهذا هو الفارق بين الرؤيتين، فرؤية الشرقاوي التي تنهل من تصور طبقي (شيوعي)، حيث عاش مجتمع القرية يأكله القلق، وتنهشه الهواجس، يتردى في مهاوٍ طبقية راسخة جامدة حتى النهاية.

أما «نجيب الكيلاني» فتصوره الإسلامي يحفّزه على تناول خاص للشخصية، يختلف عن تناول التصور البشري أياً كان دوره، فإن (عرض النفس في صورة مذهب - ككل منهج، مذهب آخر - يجعل الكاتب يختار من الحقائق والملاحظات والوقائع والصور ما يستقيم مع خط المذهب واتجاهه، ويميل إلى إغفال الحقائق والملاحظات والوقائع والصور التي تعارض خطه المذهبي، أولا ينتظمها هذا الخط - أو تجريدها من أهميتها. ومن ثم، جوانب شتى من الحقيقة الأساسية، وهذا هو المنهج البشري على الإطلاق!..

أما المنهج (التصور) القرآني فيعرض النفس الإنسانية كما في حقيقتها على النطاق الواسع الشامل.... لأن الإنسان في الإسلام مخلوق خاص، ذو كيان متميز، تميزه في ازدواج عناصر تكوينه، مستخلف في الأرض، ومزود بخصائص الخلافة، وأُولى هذه الخصائص الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة، ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل

والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته للنهوض بوظيفة الخلافة..)[١].

فالشخصية الإسلامية (الواعظ) هذا يركب مركب الحقيقة حتى لو أغضب الطغاة والحكومة، فإن عليه حقاً لا بد أن يصدع به ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [٢] وأفضل الجهاد كما يقول الرسول - ﷺ - «كلمة حق عند سلطان جائر..[٣]» .

والإمام أو الواعظ بشر يطرأ عليه ما يطرأ على عامتهم، إلا أنه يختص بعلمه وفكره وتقاه.. كل هذه تؤهله للريادة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [٤] وليست التقوى أن يخلد الإنسان للراحة أو الدعة أو لزوم المساجد، والاعتكاف في مخادع الظلمات، لكن التقوى ثورة وانطلاق نحو ميادين الحياة بكل حركتها وامتلائها، نحو ابتغاء القيم والفضائل البانية لكيان المجتمع، «فالمؤمن خير كله» ، فإن الريادة لا تتأتى لمسلم، إلا إذا كان على تقوى، تلك التقوى التي ليس معناها (أزهدكم في الإخلاد للراحة، وأرغبكم في جدل الموت والحياة، إنما معناها أعبدكم تحت راية السيف والحرب والدموع والدم إذا هيض للعقيدة جناح، أو استبيح للأمة مجال... إن أتقانا قد يكون في الحرب أشجعنا، وقد يكون في السلم أنفعنا.. وفي الدين أروعنا..)[٥].

١- مقومات التصور الإسلامي، ص ٣٦٧، سيد قطب - دار الشروق - الرابعة - ١٩٩٣ - القاهرة.

٢- سورة الحجرات آية ٩٤.

٣ - سنن النسائي، المجلد السابع، كتاب البيعة - باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر صـ ١٦١.

٤- الحجرات من الآية ١٣.

٥- في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية، ص ٤٢، د/ محمد أحمد العزب - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣ - القاهرة.

وقد ينال هذه الشخصية انطواء أو انكفاء لظروف ما، إلا أنها سرعان ما تنهض من هذه الكبوة الشيطانية التي قوضت من عزيمتها للحظات ما.. فالنفس الإنسانية - كما عرفنا - يتآزر خلالها الخير مع الشر، وتتجاور الفضائل مع الرذائل (فتشمل نوازع فطرية تربطها بالأرض، لأن الحياة- في أهدافها العليا - لا تتحقق بغير وجود هذه النوازع قوية ملحة يتعذر الفكاك من عقالها، ولكنها تشمل في الوقت ذاته نزعة - فطرية أيضاً تهدف إلى الارتفاع والسمو ومحاولة الانطلاق - ولو قليلاً - من روابط الأرض.

من ثم فالإنسان قابل - في التصور الإسلامي - أن يهبط أو يصعد، بحسب التوجه الذي يوجه إليه.. فالإغراء بالهبوط كالإغراء بالصعود، كلاهما يتلقى استجابة طبيعية من الفرد، لأن فيه استهواء لهذا أو ذاك، وبعض الأفراد - بطبيعة الحال - يكون استهواؤهم للشر أكبر، وبعضهم يكون استهواؤهم للخير أشد، ولكن الغالبية تقع في الوسط، أو هي - لتكون أكثر واقعية - أميل إلى الهبوط والاستجابة لنوازعها الفطرية الأرضية، وإن كانت في ذات الوقت لا ترفض الاستجابة إلى دافع التسامي حين يعرض لها أو تُوَجَّه إليه...) [١].. فالإنسان مشدود إلى الأرض - بنوازعه البشرية - والعقيدة تحاول أن تشده إلى السماء - بنزوعه العقدي فيحدث التوازن النفسي (الاستقامة) من ثم (يمسك الإسلام بالإنسان من خيط الصعود ليساعده على موازنة الثقل الذي

---

١ - الإنسان بين المادية والإسلام، ص ٦٩، محمد قطب - دار الشروق - تاسعة ١٩٨٨ - القاهرة.

يجذبه إلى الأرض، ولكنه لا يعنّف في جذبه إلى أعلى حتى يمزق أوصاله، أو يقطع ما بينه وبين الأرض من صِلات، لأنه حين يفعل ذلك يفقد توازنه المنشود) [١].

هذا النموذج الإسلامي نلتقي به متجسداً في شخصية الشيخ «سمعان الطوخي» في رواية «اعترافات عبد المتجلي» [٢] للروائي نجيب الكيلاني[٣]..

«الشيخ سمعان الطوخي[٤] إمام وخطيب المسجد، رجل في الخمسين من العمر، ملتزم بالتعليمات الرسمية، ويتلو الخطب التي تبعث بها وزارة الأوقاف بدون إضافة أو حذف، وعلى الرغم من تبرمه بذلك إلا أنه - بعد طول تجربة - أيقن أن ذلك هو طريق السلامة والاستقرار، فالخُطب عنده أمر ونهي، يركز على أصول العقيدة وأعمدتها الخمس، ويدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس لديه أدنى استعداد للمساءلة أو النقل أو الجزاء، وهو يعلم أن زملاء له، قد أخرجهم فساد الحال في البلاد عن الهدوء والكياسة، فسيقوا إلى المنافي أو المعتقلات، والعاقل من اتعظ بغيره وسلك طريق الحكمة والموعظة الحسنة، وهو يفهم الحكمة والموعظة، فهما مرتبطان بالنهج الذي تسير عليه إدارة شؤون البلاد، عندما سألوه عن رأيه فيما جرى لعبد المتجلي في

---

١ - السابق نفسه، ص٧٠.

٢- مخطوط بيد مؤلفها..

٣ - الرواية: المخطوط ص ـ ١٩، ٢٠ نجيب الكيلاني.

٤- سمعان: اسم الرجل المؤمن من آل فرعون وهو الذي كان يكتم إيمانه.. لسان العرب ٢٠٩٨/٣ مادة سمع، ولنلاحظ المشاكلة في هذا الاسم وما عليه من حال هذا الرجل، وكأن الكيلاني لخبرته بمعطيات الإسلام يريد أن يصنع نماذج مستلهمة من القرآن الكريم ويوظفها توظيفاً فنياً معاصراً.

المسجد على يد العمدة، هز رأسه محوقلاً وقال: «هذا بيت الله.. وهو مكان للعبادة والإنابة».

وحينما كان يجلس أمام بيته على أريكة خشبية، مغطاة بحصير صغير، جاءه أحد طلبة المدارس وسأله:

- «ألم يكن المسجد يا مولانا أيام السلف داراً للعبادة والقضاء والبيعة ومناقشة مشكلات المسلمين»..

شرد الشيخ ببصره إلى بعيد وتمتم:

- «كان... وكانوا».

لم يفهم الطالب ألغازه، وأدرك الإمام ذلك، فأخذ يشرح:

- قال عبد الملك بن مروان على المنبر: ألا تنصفوننا يا معشر الرعية؟؟.. تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر؟؟ ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبي بكر وعمر؟؟ أسأل الله أن يعين كلاً على كل..

وصمت الشيخ برهة ثم قال:

- «الحلال بين، والحرام بين..».

هتف الفتى في ثورة:

- «لقد اختلط علينا الحلال بالحرام، والفساد الضارب يفسد الرؤية..»

أطرق الشيخ ولم يعلق، وعاد الفتى يقول:

- أي قانون يمنع عبد المتجلي من إبداء رأيه...؟؟.

وابتسم الشيخ وقال:

- «إن أهل القرية البسطاء المساكين لا تهمهم قضية الونش...».

- «والسرقة وباء تفشَّى في كل الأنحاء...».

- «فلْنتحدث عن السرقة إذن...».

- كما نتحدث عنها من ألف عام؟؟... لا... لا.. من الضروري أن نربطها بقضايا معاصرة.. كالونش مثلاً..

قال الشيخ وهو يطوي الحصير مستأذناً:

- ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾[1].

فالشيخ «سمعان الطوخي» ذلكم الرجل يدعو إلى الله من خلال علاقة اجتماعية هي إلى الوظيفة أقرب منها إلى الدعوة الخالصة: فهذه المواقف منه مواقف متخاذلة، وإن كانت موجودة في الحياة للذين يؤثرون السلامة، ويخافون البطش، إلا أنها لا تمثل النموذج الإسلامي الحق، ولذلك سنرى في الرواية أنه لم يستمر على موقفه ذاك بل ثار على نفسه، وثار على سلوكه هذا، ورجع مسلماً حقاً، وأدى وظيفته كما هيأه الإسلام لها. وذلك يتضح من هذا الموقف الذي لم يجد الشيخ سمعان إلا أن يستجيب لدعوة الحاج إسماعيل على الرغم مما ستجره عليه هذه الشهامة من بلاء فقال:

- «سآتي معك يا حاج إسماعيل.

رد عليه قائلاً:

---

١ - جزء من الآية ٤٤ من سورة غافر.

- إن مركزك حساس، وأنا أعرف القيود الوظيفية.

- إذا لم أفعل، فلا قيمة لأي كلام أُطلقه فوق المنبر، والمتهم بريء ياإسماعيل حتى تثبت إدانته.. والوقوف إلى جوار عبد المتجلي لا يدخل في نطاق الجريمة.. قسماً بالله لآتينَّ معك، وليكن ما يكون.. السكوت على الظلم ظلم..».

فالشيخ عندما تجاوز ظلم الحكام في القرية وكذا مباحث أمن الدولة في القبض على عبد المتجلي بمجموعة من التهم هو منها براء - لم يجد الشيخ مناصاً عندئذ من محاولة الوقوف بجوار «عبد المتجلي» لا سيما إذا كان ذلك لا يدخل في نطاق الجريمة، فضلاً عن أنه واجبه الذي يعمل لأجله.. ويدعو الناس لاعتناقه، فقاد تظاهرة شعبية تتألف مما يقرب من خمسين رجلاً إلى مقر «سيادة المحافظ» في مسيرة سلمية من أجل المظلوم «عبد المتجلي» وعندها يلقى التقريع من السلطة (العمدة) وخفرائه وتفريق هذه المظاهرات، وأصدروا أوامرهم للمتظاهرين بالعودة إلى بيوتهم، وإلا مصير عبد المتجلي ينتظرهم.

«.. هل أصبحتم مجانين مثل عبد المتجلي؟!.. أتريدون أن تذهبوا إليه لتشاركوه في البحث عن الونش؟!.. آه يا بلد جهلة..

وأنت يا سيدنا الشيخ.. هل هذه تصرفات عالم دين يعرف الشريعة وأصول الإدارة وطاعة أولي الأمر؟..

أتعرفون ما معنى تجمعكم هذا؟.. معناه أن تساقوا جميعاً إلى المعتقل، ثم تحالوا إلى نيابة أمن الدولة..» [١].

---

١ - الرواية المخطوطة، ص ٨٣.

إلا أن الشيخ يدهش لما يفعله العمدة في أهل القرية الذين يريدون الوقوف إلى جوار واحد منهم (عبد المتجلي)... فرمقه الشيخ بنظرة مبللة بالأسى وقال:

- أنت تعلم أننا لم نرد إلا الخير..

قال العمدة في عناد:

- ما تراه خيراً قد يكون شراً من وجهة نظري.

- «العلم لأهل العلم يا عمدة».

- ليس هذا علماً يا شيخنا.

- ماذا تسميه؟؟

- هو سياسة - إدارة.. ضبط وربط... وأنت تخلط..

- أخلط ماذا يا عمدة؟..

- تخلط الدين بالسياسة.

أغمض الشيخ عينيه حين تدحرجت دمعة على الرغم منه، وقال:

- رحمك الله..

فهو لم يستطع المضي في سلبيته حتى النهاية، وإنما عاد إلى رشده وأفاق مما هو فيه، ومارس ما طلبه منه الدين من عدم كتمان الشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾[1].

١- سورة البقرة جزء من الآية - ٢٨٣.

وقال الشيخ: «ومع ذلك فسوف نذهب إلى المحافظة فرادى.. ويجب أن نبلغ الناس بذلك سراً.. حيث نلتقي هناك، وسوف أعد مذكرة لتقديمها للمسؤولين..» [١].

فالشيخ لم تهدأ نفسه لما رآه من ظلم السلطة لعبد المتجلي، فبذرة التمرد على الواقع المؤلم التي بذرها وتعهدها الكاتب منذ الوهلة الأولى في شخصية الشيخ، حتى أصبحت عندما حانت ساعة الصفر.. أصبحت تمرداً على العجز والمحاصرة التي حوصر بها طوال رحلته مع الدعوة.. إلى أن حانت فرصة الاستعلاء الحقيقي، والسمو فوق هذا العجز. فحطم الشيخ حواجز العجز وواجه العمدة، وقاد المظاهرات، وأخذ يصدع بدعوته وشهادته أمام أولي الأمر من الساسة، في صورة إعداد مذكرة بـ (الحادثة)، وعرضها على المسؤولين، غير مبالٍ بما يمكن أن يصيبه مما كان يرهبه قبل ذلك..

فشخصية الشيخ «سمعان الطوخي» التصقت بمخاوفها وعجزها حيناً، إلا أنها سرعان ما نهضت، وتخلصت من هذه النوازع المحبطة، وامتدت يداه نحو السماء، يسمو حيث الواقع الطموح الذي عرفناه في الأئمة الأوائل، الذين نستلهم حياتهم في تشكيل النموذج الإسلامي لهذه الشخصية الفاعلة في بناء الأمة وتربية تطلُّعاتها في إطار منهج أو رؤية تستمد مقوماتها من المنهج الرباني في تربية الإنسان واختياره...

فهاتان الشخصيتان (جلال الدين - سمعان الطوخي) جسدتا الظلم والعسف الذي يقع من الطغاة ورموز الحكم من خلال الصراع القائم

١- الرواية، ص ٨٤.

بين الشخصية، ومن يقفون بمواجهتها سواء جلال الدين مع الحاج عبد الودود الطاغية الذي تسانده السلطة المتمثلة في العمدة، ومأمور المركز، أو الشيخ الطوخي كذلك والعمدة وخفراؤه ومباحث أمن الدولة، إلا أن الصراع فيهما يفيء إلى ظلال الحق والحقيقة فينتهي الظلم، ويرجع المظلوم مرفوع الرأس منتصب القامة يقره الجميع على حقه، ويفرحون لانتصاره، وهو ما يرمي إليه التصور الإسلامي، انتصار الحق على الظلم، فمهما طال أمده فلا بد من بزوغ فجر العدالة الذي يتبعه نهار الحرية الطويل.

فالكيلاني استثمر الصراع استثماراً فنياً ناجحاً في بناء هذه الشخصيات مستعيناً بأدواته من: الحوار والوصف أو السرد لتشييد هذه الشخصيات ما أتاح لها خاصية الصدق والإقناع لمهارة حركتها داخل العالم الروائي، فجاءت شخصيات فنية مقنعة إلى الحد الذي أمتعنا وجدانياً.. وبحسّب الكاتب الحقيقي أن يصل إلى هذه الغاية في نفوس المتلقين..

أما الداعية الذي يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كي يكون على بصيرة من الأمر لا سيما وهو يرتاد جزءاً مستعمراً، تنشط فيه حركات التبشير المسيحي الذي يمارس نشاطه بتفوق واقتدار وحراسة من المستعمر الإنجليزي المسيطر على هذا الجزء من نيجيريا..، فلا بد أن يكون متسلحاً بمعطيات إيمانية، قادرة أن تصنع منه إنساناً من طراز خاص، مثل «عثمان أمينو» في رواية «عمالقة الشمال».

(قلت لأحد أصدقائي القدامى:

- لقد نسيتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ابتسم في يأس، وقال:

- ليس لدى الوعاظ وقت ليقولوا، وليس لدى السامعين وقت ليسمعوا...

- إننا نهدم بذلك ديننا..

- نحن نصلي ونصوم.. ونحتشد يوم الجمعة..

- الدعوة إلى الله شيء آخر..

- ماذا تعني؟؟

- يجب أن نمشي في الشوارع والطرقات والحوانيت والغابات..

هز رأسه قائلاً:

- هذا حق..

- ففيم التقاعس؟؟

- تنهد في ألم، وقال:

- الدعاة هنا مطاردون.. إنهم يصطدمون بعقبات لا يدري أحد من أين تنطلق، كثيرون منهم يُبعدون، أو يُصرَعون في الظلام، أو يُحرمون من فرص الحياة، أو يطردون من الوظائف تحت أسباب غريبة، لا تمت إلى الحقيقة بصلة.. وقانا الله وإياك شر الفتن..) [1].

١- الرواية، ص ٤٣.

إنه داعية يعرف مهام وظيفته في الحياة، ويعي خطرها تماماً - وعلى الرغم من ذلك، فإنه يصر على المضي في سبيل دعوته، والاندفاع نحو مبتغاه الأثير، ولن يثنيه عن هذه المهمة الغاية ولو كلفه ذلك حياته، فإنه واثق بوعد الله في الآخرة قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [1].

فيقرر «عثمان أمينو» التاجر الداعية المسلم في ثقة أن سيخوض المستنقعات والغابات داخل هذه البلاد داعياً إلى الله، ومعه صاحبه عبد الرحيم الذي استقدمه لحراسة قطيع الأغنام معه، ولرفقته في رحلة الدعوة إلى الله.. فقال له:

- نحن نخاطر بأنفسنا..

- أعرف..

- ففيم المغامرة؟؟

- إن صوت الله يجب أن يسمع..

- لماذا خلقنا يا عبد الرحيم؟

- لنعيش يا عثمان..

١- سورة التوبة الآيتان ١١١، ١١٢.

- الدعوة إلى الله حياة.. والموت في سبيله خلود..

- لكننا نحمل وصايا الأنبياء..

وشردت ببصري إلى بعيد وأنا أردد:

- أنا على موعد مع الجنة.. حدثني شيخي عن جنة عرضها السماوات والأرض تجري من تحتها الأنهار، وعن الصالحين الذين ينعمون بأروع ثواب.. برؤية الله، وأنا أرى الطريق جيداً.. ولن أرجع إلا إذا ترددت كلماتي في جنبات الغابات وسمعها البشر في أي موقع أنزل به...» [١].

فيبدو أن عبد الرحيم اقتنع بوجهة نظر صديقه عثمان، فاستأجر سيارة لاند روفر وانطلقا بها نحو الشرق إلى قبائل الإيبو.

ونجيب الكيلاني الأديب والمفكر والداعية الإسلامي، يفرز خبرته في هذا المجال خلال أسلوب أدبي يتميز بالسهولة واليسر، يمنحه حرية الحركة والتجول في الآفاق الرحبة للنفس الإنسانية، فيمتزج الحقيقي بالمتخيل في اطراد وعفوية، يتوارى خلالها الراوية خلف الأحداث والأسماء، ويبذر بذور الصراع، ويشق له طرقاً، ومنعطفات في نفوس الشخصيات التي يصورها، فيتجاوز المحدود إلى المطلق، وينأى عن التقريرية أو التكلف إلى أسلوب التصوير الحي المتحرك بحرية وعفوية فيستطيع أن يتجول داخل الشخصية، فينفذ إلى أعماقها، ويرتد خارجها، في كل خطوة وحركة في الزمان والمكان، وعلى مستوى

١- الرواية، ص ٤٤.

الحديث، أو الفعل المتحرك دون تعثر أو انكسار لما يصنعه هذا الأسلوب الفني من تماثل.. اتحاد.. بين الراوية والشخصية. أو كما يسميه الناقد الفرنسي «جون بويون» بـ (الرؤية مع) أو الرؤية المرافقة...

من خلال طاقة الضوء هذه (اللغة الشفيفة)، استطاع نجيب الكيلاني، أن يتجول بنا بين غابات نيجيريا وأحراشها، بين قبائلها وصراعاتها وغير ذلك.. كل هذا نراه بعيون الداعية «عثمان أمينو» وهو يوغل ويتحرك هنا وهناك غير هَيَّاب للمخاطر التي ستواجهه في رحلته هذه من وعورة المسالك ووحل المستنقعات، وكثافة الأشجار وما تحويه هذه المناطق من حَيَّات قاتلة، وذئاب مسعورة فاتكة، فضلاً عن اللصوص وقاطعي الطريق، وخفراء القبائل الذين أطلقوا صيحاتهم لرؤية عثمان ورفيقه إيذاناً بقدوم غرباء إلى القبيلة، فقبضوا عليهم، وذهبوا بهم إلى زعيم القبيلة الذي أكرم وفادتهم، لكونهم ضيوفا أتوه من شمال نيجيريا، وقدم لهم نساءً، مبالغة منه في كرمه إياهم، كما تقضي تقاليد هذه القبيلة، إلا أن عثمان شكره موضحاً له، أن دينهما يرفض هذا، فسألهم عن دينهم، وهنا واتت الفرصة عثمان كي يجهر بدعوته، فأخذ يشرح له عن الإسلام ما لم يعرفه زعيم القبيلة، وهنا حضر «الأب توم» المبشر الصليبي، وطلب منهم أن يرحلوا، ثم آذنهم بالرحيل مرة ومرة، مما أنشب بينهم صراعاً امتد على هذا النحو:

- إن أرض الله واسعة

- هذا حق...

تنحنح وقال:

- «وهناك مناطق كثيرة أخرى في الشرق والغرب.. تستطيع أن تذهب إليها...».

قلت في هدوء:

- نحن لا نقتسم الأرض، ولا نساوم على البشر..

- ما قصدت ذلك يا صديقي..

- نحن نتحرك بين شعب نيجيريا بمنتهى الحرية..

- يا صديقي قد يسيء هذا إلى مصلحة الناس هنا...

- نحن لا نملك غير الكلمات..

- لكن الناس هنا سُذّج بسطاء.. قد تتحول الكلمات لديهم إلى سهام ورصاص

قلت في دهشة:

- لماذا؟..

- من أجل أن تتدخل في شؤونهم..

- ما قصدنا ذلك.. نحن نتكلم فمن شاء آمن وما شاء انصرف عنا لا نعاقب أحداً، ولا نعطي مكافأة مادية لأحد.. نحن عابرو سبيل ليس في حوزتنا غير قليل من الطعام، وقُدرة على السير في الطريق..

«ووجدت عبد الرحيم يقبل نحونا بوجهه الأسمر الطويل ويقول:

- أيها الأب.. ألم تفكر يوماً أننا قد نكون على حق؟؟.

قال في إصرار:

- أنا مسيحي وأعرف الحق من وجهة نظري الخاصة..

- قد تكون وجهة نظر الآخرين أصوب أيها الأب توم..

نظر إلى عبد الرحيم في اشمئزاز وقال:

- الفارق الحضاري بيني وبينكم يمتد إلى قرون...

ثم استطرد في برود:

- لقد جئنا هنا لنعلمكم كل شيء.. الصناعة والزراعة والجغرافيا.. والدين.. نحن أساتذة.. تلك هي الحقيقة..

- تدخلت قائلاً:

- من الشرق ظهر المسيح.. وفي الجزيرة العربية ولد محمد.. وفي مصر ولد موسى.. زادكم عندنا.. ومع ذلك فإن البحث عن الحقيقة قضية أخرى لا تتعلق بقوتكم.. هذا ما أفهمه..

ودار الحديث شرقاً وغرباً، واحتدم الجدل، وأخيراً نظر الأب توم نظرته الخبيثة التي لا تتفق والمسوح التي يلبسها وقال:

- أنتم تلعبون بالنار..

الإفريقيون يعرفون جيداً ما يضرهم وما ينفعهم..

ضحك ضحكة ساخرة وقال:

- «سنرى» [١].

---

١ - الرواية، ص ٦٨-٦٩ .

وأخذ الأب توم يهدد عثمان وصديقه عبد الرحيم لما لم يذعنوا له، ويقبلوا بالرحيل عن القبيلة حتى أغرى أتباعه بقتلهم. وعلى الرغم من تنبه عثمان وعبد الرحيم لمثل هذه المكائد، إلا أن السهم الذي رماه الرجل أصاب كتف عثمان بعد أن تفاداه، وعرفا بأن «الأب توم» وراء تدبير هذا الحادث.. وعندما علم زعيم القبيلة بما حدث تحرى عن الجاني وقيّده بالحبال كي يقتص منه:

- الخائن يقتل.. [1].

وهنا تتاح للداعية عثمان أمينو أن يظهر من مكارم أخلاقه التي تنهض في بنائها على العقيدة التي يعتنقها ويدعو لها، فاغتنم الفرصة، وأخذ يضرع إلى الزعيم أن يعفو عن الجاني، وأسمعه من كتاب الله أية تحث على العفو والإصلاح «ومَنْ عفا وأصْلَح فأجرُهُ على الله» وألح في الرجاء أن يعفو الزعيم عن الجاني المدفوع من «الأب توم» مما جعل هذا السلوك الإسلامي الرفيع من عثمان، أن يدفع الزعيم إلى طرد الأب «توم» من القبيلة، واعتناق دين هذين الرجلين في تظاهرة حاشدة أكدت نجاح الداعية المحنك عثمان أمينو وكسبه جولة الصراع وانتصاره على الأب توم: فيطلع الزعيم على أهل قبيلته بهذه المفاجأة:

- أيها الأبناء: لقد قررت أن أعتنق دين هذين الرجلين...

وساد السكون ثم التفت صوبي قائلاً:

- قم ولقّني الكلمات المقدسة:

١- الرواية، ص٧٢.

وفي خضم هذا السكون العامر بالدهشة، وقفت ألقنه الشهادتين باللغة العربية. وما إن انتهيت وقد سال جسدي عرقاً غزيراً حتى صاح الزعيم بالحاضرين:

- قفوا ورددوا الكلمات المقدسة.

وعندما هدر الحشد الهائل بالشهادتين ظننت أنني في حُلم،إنه شيء يشبه الأسطورة، وراء ذلك كله سر إلهي لا يمكن كشفه، نفس السر الذي يكمن وراء إسلام الملايين على أيدي التجار في الهند والصين وشواطئ البحار البعيدة والجزر النائية...[١]

فما أجمل النصر حين ينجح الداعية «عثمان أمينو» في مهمته، وهو الذي كان يتوجَّس خيفة من تحقق هذا النصر، إلا أن تسلحه باليقين الرباني والخُلق الإسلامي، وفّر عليه جهداً كبيراً في تجواله في هذه الفيافي البعيدة، فإيمانه وعزمه قاداه إلى النجاح الفائق فتسمو العقيدة في نفسه، ويفرحه الحصاد الوفير في الزمن اليسير، وتشمخ عزة الإسلام في نفسه لا سيما، عندما يريد الزعيم (زعيم القبيلة) أن يُلْزِم المتنصرين على يد الأب توم باعتناق الإسلام، إلا أن عثمان أمينو أخذ يرجوه في البقاء على دينهم، لأن دين الإسلام يحترم حرية الإنسان في الاعتقاد، ويرفض في الآن نفسه - إكراه أحد على اعتناقه قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴿٢٥٦﴾﴾ [٢] مما أثار دهشة هذا الزعيم من فرط الحِلم الذي تتميز به هذه العقيدة، ونصيب معتنقيها من هذا الحِلم، الخلق الإنسان، الرفيع الذي يتمتع به هؤلاء الدعاة أصحاب الدين الجديد!!

١- الرواية، ص٧٣.

٢- سورة البقرة من الآية - ٢٥٦.

تلك كانت شخصية الداعية كما قدمها الأديب الإسلامي نجيب الكيلاني في رائعته «عمالقة الشمال» وهذه الشخصية الداعية أو عالم الدين من الشخصيات الأثيرة لدى نجيب الكيلاني لما لها من أثر في حياته، لذا شغل هذه الشخصيات حيزاً واسعاً في أدبه لأنها (تمثل قيمة عقلية وروحية وخلقية وسلوكية في صور مثالية ذات العبق الروحي في مدلولها الديني، وكذلك عبقها التاريخي في مدلولها التراثي ومدلولها الاجتماعي العرقي في الواقع المعيش[1]، من ثم ففي مصدر العطاء المتجدد والمتواصل الذي يتسع أو يصنع مساحة واسعة للالتقاء والتوادّ في إطار العقيدة الإسلامية الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها، هذا الينبوع الهائل لكل معاني الإيمان والجمال الذي يتفجر بمعان إنسانية راقية باستطاعتها تقديم نموذج إسلامي يعيش هذه المعاني وتلك القيم العظيمة، لأن المسلم وحده هو الذي تتسع نفسه للتصور الإسلامي الكامل، التصور الكوني الشامل لكل مفردات الكون، وعلاقاتها المختلفة والمتشابكة في الوقت نفسه، ليفرز مجتمعاً وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية.

فالكيلاني حين رسم شخصية عثمان بهذا القدر الكبير من الإصرار والاستعداد للتضحية وخوض التجربة دون تردد أو وجل مع التسامح الإسلامي العظيم الذي ظهر في خطواته المتعاقبة أثناء تجربته إنما يكون بذلك قدم شخصية إسلامية في إطارها الصحيح وأعطاها من الصفات ما ينبغي أن تتحلى به...

١- راجع فن التشخيص في شعر الكيلاني مقال للدكتور/ جابر قميحة بمجلة المنهل عدد ٥٢٧ رجب ١٤١٦هـ - السعودية.

رابعاً: شخصية المعلم (سيدنا..)

شخصية سيدنا في رواية السيرة الذاتية للدكتور/طه حسين[١] «الأيام» اكتسبت شهرة فاقت كل الشخصيات المخترعة في عالم الرواية، حيث تعدت شهرتها بطل الثلاثية السيد أحمد عبد الجواد، ربما للسخرية المفرطة التي عرض الدكتور «طه حسين» في إطار شخصية سيدنا، معلم القرآن الكريم للصبيان في القرية، وهذا ما لمسه كل من طالع هذه السيرة، أو شاهدها من العامة لا سيما بعدما صورت سلسلة تلفزيونية غالت في السخرية من هذه الشخصية مما أثار حفيظة علماء الأزهر، فأصدر شيخ الأزهر آنئذ أمره إلى وزارة الإعلام بإيقاف عرض هذه المسلسلة لما فيها من إساءة لعلماء الدين وحفظة القرآن الكريم الذين ينبغي أن نجلّهم ونحترمهم بوصفهم رموزاً للعقيدة التي نقدسها إلا أن صخب الحرية المائعة، علا فوق صوت شيخ الأزهر وجبهة علمائه، وتمادى جهاز الإعلام في عرض هذه المهزلة، بل وأعاد عرضها مرات بعد ذلك وكأنه يصر على السخرية والتّبجح الإعلامي المقزز!!.

وإذا كان طه حسين لا يصور كل جوانب العصر بما فيه ومن فيه، في هذه الرواية، وإنما استطاع بموهبته وإرادته أن يختار بيئة خاصة

---

١ - ولد طه حسين في ١٤ من نوفمبر ١٨٨٩م، في عزبة الكيلو التابعة لمركز مغاغة بمحافظة المنيا.. في أسرة ريفية بسيطة ومتدينة..

أنتج الدكتور طه حسين ما يربو على الأربعين مؤلفاً في مجالات شتى منها:

١- النقد الأدبي، في ذكرى أبي العلاء، حديث الأربعاء، في الشعر الجاهلي، في الأدب الجاهلي - مع المتنبي، حافظ وشوقي.. وغيرها.

٢- في الرواية: الأيام (سيرة ذاتية) - دعاء الكروان - أديب - شجرة البؤس - المعذبون في الأرض..

٣- الإسلاميات: على هامش السيرة - الوعد الحق - الشيخان - وغيرها..

وصوراً خاصة، وملامح خاصة كذلك لشخصيات معينة، لأن الأديب لايمكنه أن يعرض لكل مشاهداته، وينقل كل ما يزدحم به واقعه، لأن الفن اختيار وليس نقلاً فوتوغرافياً مباشراً عن الواقع. وبما أن هذا الاختيار يعد الأساس في عملية الإبداع، لأنه «يختار ما يخدم فكرته، ويجلو آراءه» خلال العملية الإبداعية، فإننا سنتحاكم إلى الواقع الإنساني والمسؤولية العقائدية تجاه هذه الشخصية (الرمز)، إذ إن مجابهة الفكرة أخبث من مواجهة الشخصية، فالشخصية هنا لا تهاجم أو تحارب لذاتها، وإنما السخرية هنا واقعة، أو ساقطة على أم رأس الفكرة أو الرمز الإنسان المنطوي تحت لواء العقيدة أو النابع من التصور الإسلامي.. الذي يعلي من قيمة هذه الذات أو النمط الإنساني. فالمعلم - أياً كان نوع علمه - يكفل له الإسلام من الاحترام والجلال، ما يرفع مكانته بين الآخرين، قال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**..﴿١١﴾﴾ [1] والسنة النبوية زاخرة بأحاديثها العطرة التي تؤكد على المكانة الجليلة لحملة القرآن في المجتمع [2].

من ثم ينبغي أن يكون اختيار المبدع المسلم منطلقاً من هذا التصور الإسلامي لهذه الوظيفة الإنسانية، فيقف منها المتعلم موقف التكريم والتشريف لمعلمه، وإذا كان هذا الانطباع التقديسي يشيع لدى العامة

١- سورة المجادلة من الآية ١١..

٢- روى الإمام أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إن لله أهلين من الناس، حملة القرآن هم أهل الله وخاصته» رواه ابن ماجة في سننه، المقدمة - باب فضل من تعلم القرآن وعلمه برقم ٧٨/١/٢١٥.

وروت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي (ﷺ): «من تعلم القرآن وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته قد استوجب النار...». ابن ماجة نفس الباب ٧٨/١/١٦.

فيما أُثر عنهم: من علّمني حرفاً صرت له عبداً، فما باله لدى طه حسين الشيخ المتعلم، والحاصل على أعلى شهادة عالمية، والذي كان يأمل في فجر صباه أن يتشيخ، ويصبح صاحب عمود في الأزهر الشريف، الذي غدا يقف من أهله موقف المنكر لهم، المناوئ الحانق على كل ما هو أزهري أو يمت للأزهر وربما علومه بصلة[١]!!.

أظن أن الفشل الذي لحقه في تعليمه الأزهري، والذي حاق به قبل ذلك على يد سيدنا حين زعم أنه ختم القرآن كله واكتشف أبوه بعد ذلك أنه لا يحفظ شيئاً، ثم أسلمه إلى مفتش الزراعية ليعيد تحفيظه.. هذا الفشل لم يواجهه بالاستسلام والإذعان، وإنما جابهه بالتمرد والسخط عليه، زاعماً أنه فوق علم الأزهريين، وأنهم قوم جهلاء ومتخلفون، وعاش عمره كله سواء داخل كتاب، الأيام، أو في حياته الخاصة يطعن في علماء الأزهر، وينعى عليهم جهلهم.

بهذه النظرة الساخطة/ الساخرة تناول طه حسين نماذجه الإنسانية في الأيام، وكأنه يثأر لنفسه من واقعه وبيئته التي وقفت منه موقفاً، صوّره هو في سيرته على أنه خصام متعمد وصارم في الوقت نفسه. فكان (يحس إحساساً عميقاً بظلم هذه البيئة وعنفها وتعنتها، حرك هذا الإحساس المرير ما كان متوارياً في نفسه من ذكريات بيئته الماضية، ويدعوه إلى استرجاع تلك الذكريات المريرة، فيستدعي منها كل ما كان يغذي في نفسه عاطفة الألم والمرارة والسخط وسوء الظن..

١- راجع الاتجاه الإسلامي في أدب طه حسين، ص٣١٤، د/ رمضان الجازية، طبعة أولى - ١٩٩٥ - رسالة دكتوراه مسحوبة على آلة الحاسوب.

ليتخفف من أثقال تلك الأزمة التي تمثل الموقف الإيجابي العنيف في صراعه مع بيئته بعد رجوعه من فرنسا، وهو موقف يناجز فيه مناجزة حادة ثائرة طبعت إحساسه في تلك الفترة بالحسرة والألم، وتولّد عنها سخط على هذه البيئة وسخرية منها، كما تولد عنها استعلاء منه والإدلال عليها، وقد غلبت هذه السمات كلها على نظرته التي نظر بها إلى ذكريات طفولته وصباه وصدر شبابه التي عاشها في القرية وفي الأزهر) [١]..

بهذه النظرة الساخطة المستغرقة لنفس الأديب طه حسين كتب الأيام، تلك التي جاءت نماذجها لا سيما المرتبطة بالإسلام، مثل سيدنا وشيخ الأزهر صورة طافحة بهذا السخط والسخرية، فقد صبّ جام غضبه في إطار هذه الأنماط التي زخرت بها روايته الذين يرفلون في عالم مليء بالجهل والكذب والخداع، صوّرهم يخفقون دائماً بسبب ما بهم من عجز طبعي، أو بسبب قصورهم عن إدراك طبيعة الوصول إلى آخر الطريق (ما وصل إليه هو)، لذا سقطوا جميعاً (في نظره) متعثرين في الطريق، ولم يبلغوا النجاح كما بلغ، ولذا فهو يتعالى عليهم، لأنه وحده هو الذي استطاع أن يتخطى العقبات ويتغلب على العوائق، فانتصر وحظي ببلوغ الغاية من دونهم جميعاً، وكان اهتمامه بتصوير هذه الشخصيات عاملاً من عوامل تخفي شخصه وذاته أيضاً، إذ حالت بينها وبين الظهور المستمر) [٢].

١- الترجمة الذاتية في الأدب العربي، ص٣٩٤ وما بعدها بتصرف، د/يحيى إبراهيم عبد الدايم - دار النهضة العربية - د ت - بيروت.

٢ - المرجع نفسه ص٣٩٤، بتصرف.

وعلى الرغم من هذا النجاح الذي حققه لم ينس الفشل القديم الذي مني به داخل أروقة الأزهر، فعاش يحقد عليه حقداً بلا نهاية.. فلم يعوضه النجاح، وأنه أصبح ملء الدنيا بأسرها ما ناله على يد الأزهر.

وها هو في هذه المواقف التي أفرزتها موهبته يتهكم من الشيخ كونه «يعتمد في طريقه إلى الكُتَّاب وإلى البيت على اثنين من تلاميذه، يبسط ذراعيه على كتفيّ كل واحد منهما، ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا! قد أخذوها على المارة، وحتى إنهم ليتنحون لهم عنها..)[١].

«وكان منظر سيدنا عجباً في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت... كان ضخماً بادناً، وكانت دفيته تزيد في ضخامته، وكان كما قدمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقيه. وكانوا ثلاثتهم يمشون، وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً. وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتاً، ذلك أنه كان يحب الغناء، وكان يحب أن يعلم تلاميذه الغناء، وكان يتخير الطريق لهذا الدرس، فكان يغني، ويأخذ رفيقيه بمصاحبته حيناً والاستماع له حيناً آخر، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر. وكان سيدنا لا يغني بصوته ولسانه وحدهما، وإنما يغني برأسه وبدنه أيضاً، فكان رأسه يهبط ويصعد، وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً. وكان سيدنا يغني بيديه أيضاً، فكان يوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه.. وكان سيدنا يعجبه «الدور» أحياناً، ويرى أن المشي لا يلائمه، فيقف حتى يتمه، وأبدع من هذا كله أن سيدنا كان يرى صوته جميلاً، وما يظن صاحبنا أن الله خلق

١- رواية الأيام، ج١/٣١.

صوتاً أقبح من صوته، وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل: «إنَّ أَنكَرَ الأصواتِ لصوتُ الحميرِ» ، إلا ذكر سيدنا وهو يوقع أبياتاً من «البردة» في طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر أو في طريقه إلى البيت منصرفاً من الكُتَّاب..) [١].

فسيدنا في نظر طه حسين بهذه الهيئة المنفرة التي تحجب احترام الناس عنه، وهو الفقيه الذي أُشرب حب القلوب من حوله، لم يكن إلا أرجوزاً مضحكاً، ومنفراً في الوقت نفسه، فهو لم يراع حق الطريق، ولم يلتزم بآداب السير التي أمر بها الإسلام. وكونه يظهر في صورة المهرج فيما لا يليق بالرسالة التي يحملها، وهي أمانة تعليم القرآن الكريم، وإذا كان المعلم الشيخ بهذه الصورة، فإن الناس ينصرفون عنها، ولا يثقون فيه وفي تعليمه لأبنائهم.. فهم يبغون منه أن يحفظهم القرآن، لا أن يعلمهم الغناء وما أشبهه في حركات سمجة.. فلم نعهد شيخاً بهذه الصورة المهزوزة في الوقت نفسه!! وإلى جانب هذا كله يهمل الصبي ولا يرعاه في الكُتَّاب لكون أبيه لم يدفع له مكافأة تحفيظه إياه القرآن الكريم، فهو خان الأمانة التي أوكلت إليه. وعندما يُمْتَحن صاحبنا في حفظ القرآن ويبدو أنه لم يكن حافظاً، فإنه يُقسم أنه لم ينس القرآن، ولكنه كان خجلاً ليس غير».

«قال للشيخ: زعمت أن ابنك قد نسي القرآن، ولمتني في ذلك لوماً شديداً، وأقسمت لك أنه لم ينس وإنما خجل، فكذَّبتني، وعبثت بلحيتي هذه، وقد جئت اليوم لتمتحن ابنك أمامي، وأنا أقسم: لئن ظهر أنه لا

١- رواية الأيام ج١/ ٣١، ٣٢، ٣٣.

يحفظ القرآن لأحلقن لحيتي هذه، وأصبحن معرة الفقهاء في هذا البلد، قال الشيخ: «هون عليك! وما لك لا تقول: إنه نسي القرآن، ثم أقرأته إياه مرة أخرى! «قال: أقسم بالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته، وإنما استمعت له القرآن فتلاه عليّ كالماء الجاري، لم يقف ولم يتردد».

«وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار، وكان مقتنعاً أن أباه محق، وأن سيدنا كاذب، ولكنه لم يقل شيئاً، ولبث منتظراً الامتحان..» (١).

فلم يعثر طه حسين بنقيصة إلا ورمى بها الشيخ، وكأنهما عقدا معاً عهداً على أن يقرئه الشيخ القرآن، ويرميه الصبي بالنقائص جزاءً وفاقاً!!.. وكأن الشيخ الذي يحفظ القرآن لا يعيه! ألم يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ (٢). واليمين الغموس هي اليمين الكاذبة التي يوقن صاحبها أنه كاذب، ليس لها جزاء إلا الغمس في النار يوم القيامة، فكيف بالشيخ الحافظ للقرآن الكريم، والمفترض فيه علمه بأحكام مثل هذه الأمور الظاهرة من الفقه وأمور الدين، فإذا كان الناس منهيين عن الحلف فيما يفيد ولا يفيد ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾﴾(٣). فما بال الخاصة ممن هم على علم بهذه المنهيات ومواطنها كسيدنا الشيخ،! إنها أحقاد طه حسين!!.

وأيضاً على لسان العريف: أَثِرٌ غشَّاش كذَّاب يخفي عليه بعض موارد الكتَّاب ويستأثر بخير ما يحمل الصبيان معهم من طعام ويزدرده لأنه

١- رواية الأيام، ١/٤٣ - ٤٤.

٢- سورة البقرة، الآية - ٢٢٤.

٣- سورة القلم، الآية ١٠.

كان ضريراً يتكلف الإبصار، وكان قبيح الصوت يتكلف حسن الصوت..[١].

فالشيخ لا يحترم العهد ولا يصون حق العريف، وكأنه آكل للحقوق، لا يحترم كلمته، فضلاً عن كذبه وغشه وعماه، وقبح صوته الذي ما فتئ يرميه بهما من آن لآخر، وكأنه يثأر لنفسه من هذا الشيخ الذي علّمه ما لم يكن يستطيع أن يتعلمه.

وعندما خان الصبي العهد الذي تعاهد عليه مع سيدنا، في كونه يراجع على العريف في كل يوم من أيام الأسبوع الستة، خمسة أجزاء من القرآن الكريم، حتى يتفق له حفظ القرآن بتمامه كل أسبوع فأهمل الصبي الحفظ والمراجعة باتفاق مع العريف، حتى إن أبَ الصبي راح يختبره في القرآن فلم يجده حافظاً له، وللحقيقة لم يكن الشيخ مهملاً إياه، بل كان يسأله كل يوم عما قرأ، فكان الصبي يخبره بما يفيد أنه قرأ من البقرة إلى «لتجدن» في يوم السبت، ومن لتجدن إلى «وما أبرئ نفسي» في يوم الأحد، وهكذا الأيام الباقية من الأسبوع كل يوم فيما يخصه من الأجزاء المتبقية.. وعندما عاد الصبي في يوم من الأيام عارياً من نعليه، فسأله والده عنهما، أخبره كاذباً أنه نسيهما في الكتّاب بينما هما قد سُرقتا منه وهو يلهو، فسأله عن حفظ القرآن، فلم يجده حافظاً منه شيئاً: فاشتد غضب الشيخ على سيدنا لاعلى الصبي، فهو يذهب إلى الكتاب لا ليقرأ وليحفظ، ولا لتُعْنى أو تلتفت إليه، وإنما هو لعب وعبث! ولقد عاد اليوم حافياً وزعم أنه نسي نعليه في الكتاب.. وما أظن عنايتك بحفظه للقرآن، إلا كعنايتك بمشيه حافياً أو ناعلاً.

١- رواية الأيام ٤٩/١.

قال سيدنا: أقسم بالله ثلاثاً ما أهملته يوماً، ولولا أني خرجت اليوم من الكتاب قبل انصراف الصبيان لما رجع حافياً، وإنه ليقرأ عليَّ القرآن مرة في كل أسبوع ستة أجزاء في كل يوم، أسمعها منه متى وصلت في الصباح، قال الشيخ: لا أصدق من هذا شيئاً، قال سيدنا: امرأتي طالق ثلاثاً ما كذبتك قط، وما أنا بكاذب الآن، وإني لأسمع له القرآن، مرة في كل أسبوع، قال الشيخ: لا أصدق) [١].

.. وظل صاحبنا في مكانه لا يفكر في القرآن ولا فيما كان، وإنما يفكر في مقدرة سيدنا على الكذب، وفي هذا الطلاق المثلث الذي ألقاه كما يلقي سيجارته متى فرغ من تدخينها!» [٢].

فطه حسين يكذب، ويلح على أن سيدنا كاذب كذلك، ويوثّق كذبه بالأيمان المغلَّظة، العريف كاذب ومدلس، لأنه يمالئ الصبي في تهربه من الحفظ، فهل يريد إخبارنا بأن كذبه هذا تعلمه من سيدنا ومن العريف، وأنه بذلك يهين سيدنا وعريفه، ويعلن أنه لم يتعلم منهما سوى الكذب؟ فهو لم يكتف بتلطيخ سيرتهما عند القارئ، وإنما ألقى باللائمة أيضاً عليهما حيث إنهما أشاعا الكذب في المتعلمين أيضاً..

ثم ينعته بالجهل خلافاً لما اتّهمه به في المقطع السابق من الكذب، واستحلاله الحرام وحلفه بالطلاق الثلاث، علماً بأن الإسلام ينهى عن الحلف به «فمن كان حالفاً فلْيحلفْ بالله أو ليصمُت[٣]» فلا يعظم

---

١ - الأيام، ٦١/١.

٢- الأيام، ٦٢/١.

٣ - صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان - باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى - المجلد الرابع ص: ١٨٦، رقم الحديث (٢-٣).

المسلم فرج المرأة فيحلف بالطلاق، إلا في ضروراته التي جُعل لها. فالله (عز وجل) وإن استحله إلا أنه بغَّضه، فالحلف بالطلاق سفاهة من الشيخ. ثم ينعته بالجهل «فيسأله الصبي ذات مرة، عن معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [١] فيجيبه هادئاً مطمئناً: خلقكم كالثيران لا تعقلون شيئاً [٢] وهو إزاء هذا الجهل، يشعر بالغيرة ويثور في نفسه الحنق المرير والحزن العميق، من مفتش الزراعية الذي كان على علم ودراية تامة بأصول التجويد والقراءات القرآنية، مما جعل الصبي يتباهى على الصبية أمثاله وعلى سيدنا نفسه مما كان يخرجه عن طوره[٣].

لذا أخذ يطلق الصبي لسانه في سيدنا دون هوادة، وكذا في العريف الذي لم يكن يختلف عن سيدنا في جميع صفاته، حتى إنه لا يلبث أن يتجرأ ويواجه سيدنا عند عودته حين انتهى من السنة الأولى بالأزهر، فلا يجد حرجاً في أن يقول لسيدنا: هذا كلام فارغ، حين سمعه يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه في العلم والدين وتمجيده لحفظة القرآن» [٤]، بل ويتعالى على سيدنا حينما أخذ في حفظ الألفية - ألفية ابن مالك لأن سيدنا لم يحفظ منها حرفاً، وأنه ابتهج بها ابتهاجاً لم يشعر بشيء مثله أمام أي سورة من سور القرآن الكريم، وأن نسختها الضئيلة القذرة سيئة الجلد، لكنها على ضآلتها وقذارتها، كانت تعدل خمسين مصحفاً من هذه التي كان يحملها أترابه[٥].

---

١ - سورة نوح الآية: ١٤- والآية كتبت في الرواية (وخلقكم أطواراً) هكذا خطأ!!.

٢ - الأيام: ٨٧/١.

٣ - الأيام: ١١٥/١.

٤ - الأيام: ١١٢/٢.

٥ - الأيام :/١- ٧١ - ٧٢.

وهكذا نلمح مروقاً واستهانة بالدين والقرآن لحق بالصبي مبكراً في سنواته الأولى، فهو على ما يبدو عنه لديه استعداد للتنكر للدين، مما هيأه فيما بعد لاتهامات كتبها عنه أنور الجندي[١].

وموقفه من عامة الشخصيات التي تنتمي أو ترتبط في وجودها أو نشاطها الحيوي بالدين لا يختلف كثيراً عن موقفه الماثل أمامنا من شخصية «سيدنا» التي لم يضع لها اسماً محدداً، وكأنه أراد لها الاتساع والانتشار لتكون رمزاً لكل من يقوم بهذه المهمة العظيمة في سبيل إثراء حياتنا بالعلم الديني، وأهم أسسه حفظ القرآن الكريم.. فهؤلاء جميعاً الذين كانوا يسمون بالعلماء في قريته - التي لم يضع لها اسماً كذلك - «كان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعاً ويأخذ عنهم جميعاً، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض) [٢].

وخلال هذه الرحلة مع شخصية سيدنا التي تمثل زاوية من زوايا البناء الفني في ملحمة الأيام - إن جاز التعبير - يبحر بنا الكاتب عبر دهاليز عالمه الغريب والذي لم يضع له حدوداً مكانية أو زمانية، والرواية سيرة ذاتية، لا بد أن تشتمل على حقائق معيشة في حين معين، وكذا أماكن معينة وأشخاص كذلك معينين، إلا أن الكاتب وربما لرؤية يراها، قدَّم لنا هذه الشخصيات وهي تعاني هذا الخلل النفسي مما

---

١ - راجع مؤلفات في الميزان، حيث يناقش الكاتب أعماله الأدبية التي طفحت بما يؤكد هذه الاتهامات، إصدارات وزارة الأوقاف - أبو ظبي.

٢ - الأيام، ٨٧/١.

يتيح للكاتب أن يصب جام سخطه وسخريته على هذه الشخصيات، ويتيح له مساحة ليست بالضيقة لينفث إلى جانب سخطه وسخريته فحيحاً من التعالي والزهو الممقوتين، وكلاهما قلّل من فرصة الصراحة والتجرد والصدق في تصوير هذا العالم بشخوصه المختلفة، والتي عانت كثيراً من افتئاته وتحيزه، وبذلك ضحى الكاتب بأهم أساس إبداعي يسهم في بناء الرواية، وهو الصدق والموقف الحيادي الذي يعد شرطاً من شروط نجاح السيرة الذاتية في الوقت نفسه.

ولعل تنكيره لأسماء الشخصيات والأماكن وإغفاله التواريخ - فالتنكير كان هو الطابع الذي غلبت على الرواية - (أتاح له كذلك المجال ليقضي بكل ما تحمله نفسه من السخط والسخرية دون حرج ولا تحفُّظ. لا سيما والأيام كُتبت في عهد لا يفصله عن الزمن والشخوص الذين ازدحمت بهم روايته فاصل بعيد. فالعمد إلى التنكير هو الوسيلة التي تعفيه من المواجهة الإيجابية، والتعرض للمؤاخذة، والوقوع في حرب مع أولئك الذين ما زالوا يتنسمون نسمات الحياة. فهو في حالة سخط ممض، ولا يريحه إلا أن يزيح عن نفسه ما يثقلها من كلام وجروح.. وفي مثل هذه الحالة النفسية الثائرة يكون التنكير أكثر ملاءمة للإفضاء بما يعتمل في أطواء نفسه من سخط وتمرد ونقد واحتجاج) [1]. هذا إلى جانب الانعكاس (انعكاس الحاضر على الماضي) الملموس في روايته. إذ إنه اتخذ موقفاً أملاه عليه حاضره الذي اتصل فيه بالغرب فرفض كل ما عايشه..

١- الترجمة الذاتية في الأدب العربي، ص: ٤١٦، ٤١٧ بتصرف.

تلك كانت أهم الشخصيات (الصوفي - المأذون - الإمام - الواعظ - الداعية - المعلم - شيخ الكتاب). التي ترمز أو تمثل الشخصية الإسلامية فيما ترمز إليه من القيم والمبادئ السامية، والفضائل الإنسانية التي تقترب بالشخصية من دائرة النور، أو الخلاص في عالم الأحياء، إلا أنها واجهت بعضاً من الانحرافات المصطنعة بفعل مبدعيها الذين ينشدون من خلال هذا التصوير محاولات بعث أفكار أو أيديولوجيات تقف من الإسلام موقفاً عدائياً، وإن كان بعض الروائيين الذين لم تتح لهم فرصة الذيوع الإعلامي، والنقدي على الساحة الإبداعية، قدموا لنا نماذج فريدة، نابعة من الرؤية أو التصوير الإسلامي مثل (نجيب الكيلاني) لبعض من الشخوص الذين يرتبطون في هذه الوظائف بالدين الإسلامي، فكانوا نماذج رائدة، إلا أنهم يحتاجون منا إلى نشاط ووعي أكبر، بمهمة متابعة أعمالهم ما سنحت الظروف وأتيحت المنابر الثقافية.

obeikandl.com